كتاب

مَراتبُ المُتعلمين

تأليف

خالد نصار

الإثنين الموافق 8 سبتمبر 2025

دبي ، الإمارات العربية المتحدة

إهداء

إلى عائلتي أصلُ شجرتي ومَعينُ مودَّتي الذين غرسوا في فؤادي بذورَ الصبرِ والكفاحِ وصلةِ الأرحامِ فأنبتت وُدّاً لا تذروهُ عواصفُ الأيّام، إلى أصدقائي زُهّاد الغيابِ ورفقاء الوصالِ الذين ما فتئوا يطوّقون غربتي بأكاليل المؤانسةِ، فأضحى الزمانُ بهم نديّاً والوحشةُ في حضرتهم عَدَماً.

أهديكم هذا الأثرَ لا على سبيلِ المكافأةِ فما البِرُّ يُجزى ولا الوُدُّ يُكافأ ولكن على جهةِ الاعترافِ بجميلكم المستكنّ في شِغافِ القلبِ إذ أنتم جمرتُه الدافئةُ في ليالي البردِ ونسغُه الجاري في صميمِ العودِ، ورُوحُه التي إن غابت تلاشى الجسدُ فتقبلوه هديةَ مَحبّةٍ لا تبلَى وذِكرى لا ينالُها صَريمُ الدهرِ ولا يطويها غَسقُ النسيانِ.

- خالد نصار

المحتوى

مقدمة: الدنيا في مرآة العارفين:

قال تعالى: "نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ وفوقَ كُلِ ذي علمٍ عليمٌ" صدق الله العظيم الدنيا ليست سوى برق يلمعُ ثم يخبو، سرابٌ يلوحُ في أعين العطاش فيحسبونه ماءً حتى إذا جاءوه لم يجدوا شيئاً هي مسرحُ الظلال حيث تتراقص الصور ويُفتتن البصر بما ليس له ثبات، الدنيا خيال قائم على خيال ووجودها أشبه بظل شجرةٍ في فلاةٍ لا يلبث أن ينزاح حين تميلَ الشمسُ، الدنيا في حقيقتها ليست مذمومة لذاتها فهي موضع الابتلاء ومزرعة الآخرة ولكن المذموم التعلق بها والانغماس في شهواتها حتى تُنسِي القلبَ أصله ومآله فمن جعلها مقصده غرق في وهمٍ لا نهاية له ومن جعلها مطيةً إلى الله صارت له سُلّماً إلى المعارف وجسراً إلى النعيم المقيم.

قال بعض العارفين : *الدنيا جيفةٌ وطلابُها كلابٌ*، ليس مرادهم تحقير النعمةِ ولا كفران العطاءِ بل التنبيه على أن من عَبدَها صار عبداً لغير اللهِ ومن اغترّ بزخرفها أضاع نفسَهُ أما من نظر إليها بعين الحكمة رآها مَدرسةً للروح ومَعرضاً للفتن التي تُصقل البصيرةَ كما تصقلُ النارُ الحديدَ.

أهلُ الظاهرِ يرون الدنيا دارَ تجارةٍ وأهلُ الباطنِ يرونها دارَ عِبرةٍ، العيونُ تنشغل بالزينة أما القلوبُ فتنشغلُ بالمكوِّن، من نَظرَ بعينِ الحسِ رأى الذهبَ والفضةَ والقصورَ واللذائذَ ومن نظر بعينِ البصيرةِ رأى الفناءَ المكتوبَ على كل شيء "*كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ*" فلا يبقى إلا وجه الحق سبحانه.

القلب العارف لا يُخدَع بالصور بل يَعبرُ منها إلى المعاني فإذا نظر إلى الزهرة في بهجتها تذكر ذبولها وإذا نظر إلى القصور في علوّها تذكر خرابها وإذا نظر إلى نفسه في شبابها تذكر شيخوختها وهكذا يعيش العارف بين الحضورِ والغيابِ، يرى الدنيا

حجاباً حين يغفل وجسراً حين يَعتبر الدنيا ابنة الزمان والزمان سهمٌ لا يلتفت إلى الوراء، كل لحظة تنقضي هي جزء من الدنيا يُطوى فلا يعود، قال بعض العارفين *"إنما أنت أيها الإنسان بضعة أيام فإذا مضى يوم مضى بعضك"*.

ومن أدرك أن الزمن رأس ماله صانه عن الضياع أما الغافل فيحسب أن غده مضمون وينسى أن الموت أقرب إليه من شراك نعله لهذا لم يكن الزهد في ترك الدنيا باليد فقط بل في تركها بالقلب، ألا يُسكِنَها القلبُ منزلاً ولا يجعلها موضعَ أملٍ أو مقاماً دائماً، الدنيا ظلٌّ زائلٌ وخيالٌ عابرٌ لا تستقرُ على حالٍ، مَن رآها مستقرة فقد جهل حقيقتها ومن جعلها وسيلة عرف قيمتها، الحكيم يتعامل معها كما يتعامل العابرُ مع الجسر يعبرُ ولا يقيمُ يستضيءُ بنورها دونَ أن يَغترَّ ببريقها ويتزوّد منها للرحلة البعيدة.

فالدنيا عند أهل البصيرة ليست داراً للقرار بل دار سفر وليست مقاماً للخلود بل لحظة حلم ينفتح بعدها باب الحق حيث البقاء الحق والمُلك الحق والنعيم الذي لا يزول فالحمد لله الذي جعل الدنيا دار ممرّ والآخرة دار مقرّ وجعل من عقل من عباده زاهداً فيها راغباً فيما عنده وصلى الله على سيدنا محمد الذي أعرض عن زخارفها واختار ما عند الله من كرامته.

يا هذا اعلم أن الدنيا ظلٌّ زائلٌ ونَفَسٌ عابرٌ وريحٌ تهبُّ ثم تسكن، فمن جعلها غاية سعيه ضلّ وهلك ومن جعلها مطيّةً إلى الآخرة سعد وفاز، إنها دار خُلقَت للابتلاء لا للخلود وللسفر لا للإقامة فهي أشبه بالمنزل الذي ينزل فيه العابرُ ساعةً ليستريحَ ثم ينهض إلى مقصده.

أما رأيت المسافر يجلس في القافلة على الرمضاء ساعةً فلا يبني بيتاً ولا يُشيّد جداراً لأنه يعلم أنه عابر سبيل فكذلك المؤمن في هذه الدنيا يقتات منها ما يسدّ

رمقه ويأخذ منها ما يبلّغه إلى الله ثم يرحل عنها غير آسفٍ ولا متشبّثٍ، إنك إن نظرت إليها أعجبتك وإن عانقتها أهلكتك، كم من عاشقٍ لها ضحكت له ساعة فبكى دهراً وكم من مُعجبٍ بزخرفها أقبلت عليه ثم غدرَت به فتركته جثةً لا تملكُ لنفسها نفعاً ولا دفعاً.

إنها تُرِي الضعيفَ أن العمرَ طويلٌ فإذا بالموتِ يخطفه وهو غافل وتُمنِي الفقيرَ بالغِنى فإذا بالرحيلِ يقطعُ أملَه وتُخيّلُ إلى صاحبِ السلطان أن عرشَه دائمٌ فإذا بالأجل يهوي به في حفرة لا يملك منها خلاصاً، أما سمعت قول الحق سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: 185)

فهي غرورٌ لمن ركنَ إليها وابتلاءٌ لمن اعتبرَ بها، الزهدُ ليس بترك المال في اليد إنما هو بتركه في القلب، قد يكون الغَني أزهد من الفقيرِ إذا لم تتعلق نفسه بما في يده وقد يكون الفقير أشد حباً للدنيا إذا كان قلبه مشغوفاً بها.

الزهد أن تَملِكَ ولا تُملَك، أن تستعمل الدنيا ولا تستعملك، أن ترى النعمةَ وسيلةً للشكر لا للكبر وأن تجعل من كل لذة عابرة سلماً إلى لذة أبدية.

قال رسول الله ﷺ *"ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"* فانظر كيف جعل حب الله مرهوناً بالزهد وجعل المهابة في القلوب معلقة بترك الطمع فيما بأيدي الخلق.

يا هذا من أراد الآخرة عَمّرَ قلبَه بالرجاءِ والخوفِ وامتلأت نفسُه بالشوقِ والأنسِ أهل الآخرة قوم باعوا قليلاً بكثيرٍ وفناءاً ببقاءٍ ونظرةً عاجلةً بنعيمٍ سَرمدي.

ألا تسمع منادي الإيمان يناديك كل يوم "*يا غافلاً عن المصير إلى متى تعمر داراً ستخرب وتنسى داراً لا تزول؟*" ألا ترى أن الليل والنهار يهدمان الأعمار هدماً ويقربان كل بعيد حتى إذا جاء الأجل لم ينفعك الندم ولا الحسرات؟

إن الآخرة ليست غيباً لمن أبصرها بعين قلبه فالجنة تعرض على القلوب في ساعات الصفاء والنار تُشاهدها الأرواح في لحظات اليقظة فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن أبغض لقاء الله أبغض الله لقاءه فاتق الله وخذ من دنياك لآخرتك ولا تكن كمن أسرف على نفسه حتى جاءه الموت بغتةً فندم حيث لا ينفع الندم، اجعل الدنيا مزرعةً واحصد منها عملاً صالحاً وتزوّد منها بزادٍ يبلّغك دار الخلود.

كيف يغتر الانسان بالدنيا وهي تفارقه ويركن إلى ما يزول عنه ويترك العمل لما يبقى له؟ أتراه يجهل أنها دار ممر لا دار مقر؟ أم أن الغفلة قد استولت على قلبه فأنسته حقيقة مصيره؟

إن الناظر بعين البصيرة يرى الدنيا كظل زائل أو كحلم طائر أو كسحابة صيف تنقشع عن قليل ألم تر إلى زينتها كيف تزول؟ وإلى نضارتها كيف تحول؟ وإلى أهلها كيف تصرفهم الأيام عن لذاتهم وتنقلهم من قصورهم إلى قبورهم؟ فمن كان هذا شأنه كيف يتعلق به العاقل؟ وكيف يرضيه مؤقتاً عن مؤبد؟

لقد شبهها الحكماء كالشارب من ماءِ البحرِ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً وكالساعي خلف سراب يُخيلُ إليه أنه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فمن طلب الراحة فيها لم يزد إلا تعباً ومن سعى للخلود فيها أدركه الفناء وهو يحسب أنه أدرك البقاء.

أما الآخرة فهي دار القرار وجنة المثوى والأنس فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هي الحياة الحقيقية التي لا موت بعدها والنعيم المقيم الذي لا زوال له فكيف يبيع عاقل نعيماً أبدياً بشهوة ساعة؟ وكيف يفرط في جنة

عرضها السماوات والأرض من أجل متاع زائل؟ إن حب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الذي أخرج آدم من الجنة وأسخط إبليس فأصبح من الملعونين وإن حب الآخرة هو سبيل النجاة به تُنال الرحمة وتُجتنب النقمة ويُفوز برضى الكريم الوهاب.

فيا من اغتر بالدنيا! استيقظ من رقدتك وانتبه من غفلتك واعلم أن السعيد من عمل ليوم رحيله والشقي من أضاع عمره في طلب ما يفنيه اجعل الدنيا في يدك لا في قلبك وليكن همك ما بعد الموت فإنه الحياة التي لا موت فيها.

واحذر من التسويف فإنه حيلة الشيطان ليصرفك عن الطاعة ويزين لك الأماني الكاذبة واعلم أن الموت يأتي بغتة.

واعلم أن الزهد في الدنيا باب لحب الآخرة وأن من تعلّق بالدار الباقية هان عليه فراق الفانية فاحذر أن تُخدع بالبريق الكاذب وأبصر بنور اليقين حقيقة المصير تجد أن الآخرة هي الحياة الحقّة والدنيا ظلّ يتلاشى عند أول نفخة في الصور، اللهم اجعل قلوبنا معلقة بك وأبصارنا شاخصة إلى دار كرامتك ولا تجعلنا من المغرورين بزينة الدنيا واجعلنا من الزاهدين فيها المحبين للقاء وجهك الكريم.

الباب الاول : أهمية العلم

في مَطارح الأسرار ومَدَارج الأنوار ومَخفي المكنونات

يا سائلاً عمّا استغلقَ ومُلتمسًا ما استبطنَ في مطاوي الغيبِ اعلم أنّ العلمَ بحرٌ لا ساحلَ له وأنّ أسرارَه كالشمسِ إذا استترت خلف أستارِ السحابِ لا تَرى العيونُ إلّا شعاعًا وأما كُنهها فموكولٌ إلى البصائرِ لا الأبصار، لقد تقاصرت الأفهامُ عن إدراكِ حقيقتِه وتفرّقت الظنونُ فيهِ شَذَر مَذَر حتى صار كلّ ذي عقلٍ يتوهمُ أنه قد أحاطَ منه بما لا يُحيطُ به إلا الحقُّ سبحانه.

فالأسرارُ في جوهرِها جواهرُ مُودَعةٌ في صَدَفِ الوجود لا ينكشفُ غِطاؤها إلّا لمن خلع نعلَي العادةِ وسارَ في فلواتِ الفكرِ يُمعنُ النظرَ في لَوامع الآيات ويديمُ السمعَ لصوت الفطرة إنّ العلومَ الظاهرة وإن زخرفت بها القرائح وازدانت بها الألسنةُ ما هي إلا رسومٌ على صفحة الطين وأما العِلمُ الحقُّ فهو سرٌّ مُسرّد في نسيجِ الأكوان لا يَعرفُهُ إلا من نفذَ من القشرِ إلى اللُبابِ.

إنّك إن نظرتَ إلى السموات رأيتَ فيها انبساطًا وسكونًا ولكن وراء الانبساط قبضٌ لا تُدركهُ الحواسُ ووراء السكون حركةٌ في سرّ السرّ إذ كل ذرّة تهتف بلسان حالها: "إنّ لي من الغيبِ ما لا تحيطون به" ولولا ذلك السرّ المخبوء لانفرط عِقد الكون وتهاوت دعائمُ الوجود ولكن حكمة الحقّ أودعت في كل شيء قدره وجعلت لكل خفيٍّ ستارًا ولكل ستار بابًا ولكل باب مفتاحًا ومفاتيح الغيب عنده لا يعلمها إلا هو.

أما ما بقي لنا من الأسرار فهو اللمحُ اليسيرُ من بحرٍ غزير والقبسُ الضئيلُ من نورٍ مُستطيل؛ إذ كيف يدركُ المحدودُ أسرارَ غير المحدود؟ غير أنّ العقول إذا تطهّرت من أكدار الشهوة وانعتقت من ربقة التقليد لمحت من وراء الأستار بوارقَ تُنير السبيل وتُبشّر السالكين بأنّ وراء كل معلومٍ مجهولًا ووراء كل ظاهرٍ باطنًا ووراء كل باطنٍ باطنًا آخر إلى غير نهاية.

ولولا الأسرار لبطلت العِبَر ولولا الخفايا لانقطع السلوك إذ لا تزال النفوس تتشوّف إلى ما وراء الحجاب وتستزيد من العلم فلا تُروى فكلّما بلغَ العبدُ مرتبةً في المعرفة أطلعه الحقُّ على غيبٍ لم يكن يعلمه فإذا ظنّ أنه بلغ النهاية بدا له أن لا نهاية وإذا توهّم أنه حاز الكلّ علم أنّه ما حاز إلا قطرةً من بحر وما أحاط إلا بحرفٍ من كتاب.

وإني لأقول – لا على سبيل التفسير بل على سبيل الإشارة – إنّ بقاء الأسرار في الوجود هو عينه الرحمة؛ لأنّ كشفها دفعةً واحدةً يزلزل العقول ويطيش الألباب ألا ترى أنّ العين لا تحتمل نور الشمس إلا من خلال الحجاب؟ فكذلك العقل لا يحتمل أنوار الغيب إلا على قدر طاقته فمن رام الكشف دفعةً واحدةً فقد تعجّل حتفه ومن صبر للسير في مدارج الأسرار انفتحت له الأبواب بابًا بعد باب.

فلا تظنّن أنّك بالبحث وحده تنال المكنون ولا أنّك بالجدال تحوز المكنوز؛ فإنّ العلم سرٌّ له ظاهرٌ وباطن وباطنه له باطن وليس يُدرك إلا بالصدق والتجريد وإذا أردت أن تعلم حقيقة ما بقي لنا من الأسرار فانظر في نفسك؛ فإنّ فيها عالَمًا أعظم من العالم وفي قلبك مرآة لو صُقِلت لاستبان فيها ما خفي عن سواك ولكن القلوب صدئة والنفوس محجوبة فمن رفعَ الحِجابَ رأى العُجابَ.

فالعلمُ الحقُّ ليس ما كُتبَ في الأسفار ولا ما حُفظ في الصدور بل هو ما انكشف من أنوار الحقّ على القلب وكل علمٍ لا يوصلك إلى الله فهو جهلٌ في لباس العلم وكل سرٍّ يحجبك عن الحق فهو فتنةٌ لا فتوح فأسرار الوجود باقيةٌ إلى قيام الساعة ولن يُدرك كنهها إلا من أُذن له أن يشرب من كأس الكشف ومن أُذن له فقد فاز ومن حُجب فقد خاب ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

يا طالِبَ ما وراء الحِجابِ ومُستشفّ أسرارَ الغيبِ عند مَلِكِ الأسبابِ اعلم أنَّ الغيبَ بحرٌ لو غُمسَ فيه الفكرُ تكسّرَ زورقُهُ ولو حاولَت العقولُ إدراكَ قعرِهِ ضلّتْ في لُجّتِه إذ الغيبُ الإلهي ليس ما حجَبَهُ عنك الزمانُ والمكانُ فحسب بل هو ما استغلقَ على جواهرِ العقولِ وإن عَلت، وانحجبتْ عنه أبصارُ القلوبِ وإن صَفَت فكيف لمن قُيّد بأوهامِ الحدّ أن يحيطَ بمن لا حدّ له؟ وكيف لظِلٍّ فانٍ أن يَقبضَ على شمسٍ لا يأفُلُ نورُها؟

الغيبُ في حقيقته وجهٌ من وجوه الحقّ لا تدركه العباراتُ بل الإشارات ولا تُحصيه الأقلامُ بل الأحوال كلّ ما ظهرَ لنا فهو شَذرةٌ من غيبٍ مطمور وكلّ ما خفي عنّا فهو سرٌّ من أسرار السّرور ولو كُشِفَ الغطاءُ لفنيتِ الأكوانُ من هيبةِ أنواره إذ ليس الغيبُ أن يغيبَ عنك الشيءُ بل أن يغيبَ عن إدراكك معنى الشيء فترى الصورةَ وتجهلُ سرَّ الصنعةِ وتلمحُ الأثرَ وتغفل عن المؤثّر وتشهدُ الأسماءَ وتُحجبُ عن المُسمّى.

لولا الغيبُ لما كان للشهود معنى ولولا الحجابُ لما صحَّ السلوك إذ الغيبُ هو الرّوحُ السارية في ظاهر الأكوان والسرُّ المكنون في بواطن الإنسان به تقومُ الأشياءُ على غير عمد وبه يظهرُ المجلى لمن شاء الله له أن يشهد فكلّما أمعن السالكُ في بحرِ العيان بدا له أنّ وراء كلّ معلومٍ مجهولاً وأنّ نهاية العلم بداية جهل وأنّ الغيبَ الإلهي ليس يُدركُ بالإحاطة بل بالعجز عن الإحاطة.

وليس كشفُ الغيبِ جمعَ أخبارٍ عن المستور ولا توقّعَ ما يكون بل هو شهودُ سِرٍّ لا ينكشفُ إلا لمن سكنَ إلى مولاه وانسلخَ من علائق دنياه فإنّ الحقّ سبحانه لم يجعل مفاتيحَ الغيبِ إلا عنده وذكر أنّه لا يُظهرُ على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول أو مَن اصطفاه لنور الكشف بلا دعوى، فالمؤمنُ إذا صدقَ بدا له من وراء أستار الغيب برقٌ خاطفٌ يلمحُه الفؤادُ ثم يحتجب كالبرقِ اللامع في الليلة الظلماء لا يُدرك كُنهَه إلا من طهّرَ قلبَه من الالتفات.

إنّ سرَّ الغيب أوسعُ من الأكوان وأرفعُ من الإمكان وأرسخُ من الأزمان ولا تُحيطُ به عقولُ الخلق وإن اجتمعت، بل إنّ كلَّ كشفٍ يُعطيك إيّاه الحقُّ إنما هو بمقدار طاقتك لا بمقدار حقيقته، ولو كشفَ لك الغيبَ على ما هو عليه لذابتْ نفسك من هيبة جلاله أفلا ترى أنّ موسى كليم الله خرّ صَعِقاً حين تجلّى ربُّه للجبل؟ فكيف

لو تجلّى له بلا حجاب؟ لذلك كان الغيبُ رحمةً كما هو حجاب وكان الحجابُ لطفاً كما هو ستر.

فالغيبُ الإلهي سرٌّ لا يُنال بالجدلِ ولا بالعلْم الكسبيّ بل بالذلّ والخضوع وبالتجرّد عن دعوى الإحاطة، كلّما ازددتَ علماً ازددتَ يقيناً بأنّك لا تعلم وكلّما ازددتَ قرباً ازددتَ رهبةً من ذلك الغيبِ الذي لا يُدرك.

وما بقي لنا من أسرار الغيب إنما هو نصيبُ كلِّ مؤمنٍ صادقٍ على قدرِ صدقِهِ فإنّ الحقائق لا تُبذلُ لأهلِ الغفلةِ والأسرار لا تُلقى في آذانِ من لا يعرفون قدرها قالوا: "من أفشى السرّ لغيرِ أهلِهِ فقد ظلمَ السرّ" فإنْ طهرتَ باطنك من كدر الهوى وأطفأتَ نارَ التعلّق تجلّى لك من الغيب على قدر صفائك، أمّا من جعل الغيبَ ألعوبةً للعقول أو تصوّره أرقاماً وأبراجاً فقد جهلَ سرَّ الغيب وظلّ في التيه.

فيا طالب الغيب لا تغترّ بالظواهر ولا تحسبنّ أنّ العلم يُحيطُ بالغيب فالغيبُ يُحيطُ بالعلم وكلّ سرٍّ تكشفه اليوم فاعلم أنّ وراءه سرّاً أعظم إلى ما لا نهاية ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فمن عَرِف هذا استراح ومن جَهِل هذا تاه.

اعلم أيها الطالبُ أنّ اللّهَ جلّ شأنه علّم بالقلم وجعل العلم نورًا في القلوب والفقه في الحقّ هدىً وجعل الدنيا متاعًا زائلًا فمن طلب العلم من غير عمل وقلبه متشبّع بالدنيا حُجب عن الحقائق ومن عمل بما علم وزهد فيما يرى وصل إلى سرٍّ لا يُدرَك إلا بخاصّة العارفين.

فكتابي هذا يُرشدُ الطالبَ في مراتب العلم والعمل والزهد والتقوى ويبيّن طريق السالك بين الظاهر والباطن وبين الحفظ والتدبّر وبين الجهد المادي والجهد الروحي

أيها السالكُ في دروب الحق اسمع حكمةً تنقش في قلبك كما تنقش الشمس أثرها على الرمال في البيداء، إن العلم الشرعي ليس كسائر العلوم بل هو ماء الروح ونور القلب وجناح العبد في العروج إلى الله كما تكون الشمس منارة النهار والنجوم مشاعل الليل.

انظر إلى قلبك كما تنظر إلى البستان في فجره هل هو مزروع أم موحش؟ العلم الشرعي كالماء الذي يروي الأرض اليابسة ويزرع في القلب زهرة اليقين من عاش بلا علم كان كالطائر في الصحراء بلا وادٍ يتيه بين كثبان الهوى ويظل يتوهّم السراب ماءً ومن اهتدى به أصبح كالواحة في موضع الجدب ينعش نفسه ويهدِي من حوله.

إنّ الزهد في الدنيا ليس بالترك فقط بل في قلبك ووجودك الدنيا دار سراب تُرى فتغريك وتُلمع فتضلّك فإذا دنوت منها أضلتك وإذا ابتعدت عنها ارتفع قلبك إلى عليين، كن كالطائر الذي يمر فوق الجبال لا يقيم فيها ينظر إلى الظلال ولا يغتر بها يسلك طريقه إلى الروض الأبدي حيث لا غبار ولا سراب.

يا أخي من أحب الآخرة اشتعل قلبه شوقاً إلى اللقاء وانطلقت روحه في رحلة إلى القرب الإلهي فصار كل همّه رضا الله وكل سعيه للخير، والآخرة ليست بعيدة بل هي مطية من نور، من جلس على صهوة العلم الشرعي امتطاها فتجاوز كل ظلال الغفلة ووصل إلى مقامٍ يرى فيه الحقائق كما هي لا كما يزيّنها الهوى.

أيها السالك لا تكن كالجاهل الذي يسير في ظلمة الليل فالعلم الشرعي كالمصباح في الدرب المظلم ينير قلبك ويهدي خطواتك ويجعل منك مصدراً للخير لمن حولك الأمة بلا علمائها كجسد بلا روح يسير بلا هدى ويهلك في زحام الدنيا، أما

من نهل من هذا العلم فقد صار كالجدول الجاري في أرض قفر يروي النفوس ويزرع الحكمة في كل قلب عابِر.

اغتنم طلب العلم قبل أن يرحل العمر كما يرحل النجم عن السماء ولا تجعل الدنيا موضع تعلقك بل اجعلها مزرعةً والزهد فيها طريقاً إلى الرضا الإلهي كن كالرحالة الذي يسلك وادياً بين الجبال لا يبني في الرمل بيتاً ولا يتشبّث بالظلّ العابر بل يسعى إلى دار لا يزول نورها ولا تفنى به سرورها فالعلم الشرعي نور القلب وسراج الروح وسبيل العارفين إلى رضوان الرحمن فمن اقتنصه فقد ملك الدنيا والآخرة ومن أغفله فقد ضلّ في متاهات الغفلة وبقي قلبه حبيساً للظلام لا يطال نور الحقيقة.

إن طلب العلم الشرعي هو أشرف المقاصد وأنبل الغايات وأسمى المراتب التي يتشوف إليها أولو الألباب فهو ربيع القلوب ونور البصائر وسفينة النجاة في بحر الحياة الدنيا العميق.

العلم الشرعي ليس مجرد حروف تُروى أو مسائل تُحفظ بل هو حكمة إلهية وسر من أسرار الوجود به يعرف الإنسان ربه ويعرف نفسه ويعرف طريق السعادة الأبدية هو ذلك النور الذي يخرق حجب الظلمات ويضيء دروب الحائرين ويهدي إلى الصراط المستقيم.

فيا أيها العاقل المتأمل! أتراك ترضى أن تكون جاهلاً بخالقك غافلاً عن حكمته بعيدًا عن معرفة شرعه؟ أم كيف تغفل عن طلب العلم وأنت ترى الكون من حولك يشهد بعظمته وكل ذرة فيه تنطق بحكمته؟

إن العالم بغير علم شرعي كالسفينة بغير ربّان تجري بها الأمواج حيث شاءت وتصطدم بصخور الأهواء والضلالات والعلم الشرعي هو الذي يصلح الفطرة ويهذب الأخلاق ويقوم الاعوجاج ويرفع الإنسان إلى مصاف المقربين.

وإن من أعظم الحكم في طلب العلم الشرعي أنه يورث الخشية من الله فكلما ازداد العالم علمًا ازداد لله خشية وعرف قدر نفسه ووقف عند حدوده، فأين المشغولون بعلوم الدنيا وزخرفها من العلماء الراسخين في علم الشرع؟ أولئك ساروا في ظاهر الحياة وهؤلاء سبروا أغوار الحكمة والمعرفة.

وإنك لتعجب من أقوام يقطعون الأعمار في تعلم ما ينفعهم يوماً ويضرهم غداً ويتركون العلم الذي ينفعهم أبد الآبدين ويهديهم إلى دار السلام، أليس هذا هو الخسران المبين؟

فيا طالب الحق يا من تبحث عن الحكمة! اجعل همك العلم الشرعي فهو البحر الذي لا ساحل له والكنز الذي لا يفنى، اجعل نُصب عينيك قول النبي الكريم: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة."

واعلم أن الراحل في طلب العلم لا يزال في عبادة ما دام على الطريق ونفسه تهفو إلى المعرفة، فاطلب العلم من المهد إلى اللحد ولا تستح من التعلم فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

إنّ العلم بحرٌ بلا شاطئ ونورٌ لا يضيء إلا بقلب واعٍ متفتح ومفتاحٌ للسرّ قبل أن يكون كتابًا على الرفوف فمن اكتفى بالحفظ شبّه نفسه بالظل الذي يتبع النور لا بالنور الذي يضيء الظل فالعلم لا يُحيا إلا بالمعرفة ولا يثمر إلا بالتدبر والعمل كما أنّ النور لا يُدرَك إلا بالعين ولا العين إلا بالتحريك الباطني للقلب.

كما أنّ العلم سبيلٌ إلى الحقّ والحق غايةٌ لا تُدرَك بمرايا الكلام وحدها فالمرايا تعكس الصور ولا تعطي الجوهر والمرايا القديمة التي كان ينظر فيها الحكماء كانت كاشفة للمعاني لمن له عين البصيرة وخافية على من عمي قلبه عن السرّ ومن ابتعد عن التدبّر والوجدان بقي كالغريق الذي يتلمس الشاطئ بلا رؤية البحر لا يكتشف اللآلئ المدفونة في الأعماق ولا يذوق رائحة الماء العميق بل يكتفي بالفقاعات التي تتطاير على السطح.

فالطالب الحق يجب أن يكون كبحر ساكن يجمع الأنهار دون أن يفيض عنها ويستوعب أسرارها دون أن يضيع فيها البحر العميق للمعرفة يبتلع الغافل ويكشف للغواص العارف كلّ درّة مخفية وكل حقيقة لا تُرى إلا لمن تهيأت عيناه للسرّ الكتب مرايا والمرايا لا تُبصر من لم يكن له عين بصير ومن قرأ ألف كتاب ولم يفهم معانيها كمثل من نظر في المرآة دون عين لا يرى سوى صورة بلا روح أما من نظر بعيون الحكمة فكل كتاب يصبح له نور وكل حرف يلمع كاللؤلؤ المكنون في أعماق البحر وكل سطر يبوح بما لا يبوح به الظاهر.

الفهم العميق للمعنى يفضي بالطالب إلى إدراك أسرار لا يُدركها الحفظ وحده كما أنّ النور لا يُدرَك إلا بالعين ولا العين إلا بالتحريك الباطني للقلب فالطالب الحق يسير بين الظاهر والباطن بين الحروف والمعنى بين النطق والفهم فلا يغرق في ألفاظ الكتب ولا يتهاون في تطبيق ما عرفه ومن وقف عند الحفظ فقد حُجب عن الحقائق ومن تجاوز الحفظ إلى التدبّر وصل فصار العلم عينَه والعمل نفسه والمعنى قلبه فلا فرق بين الحافظ والمحفوظ ولا بين الطالب والحقيقة.

واعلم أنّ كل كلمة في كتاب وكل حقيقة في الكون وكل شعاع نور وكل قطرة ماء وكل حركة في الأرض هي مرآة للحق وأن المرء لا يُعرف إلا بفهمه لما وراء الحروف

والأسماء فالعلم هو الجسر والمعنى هو السرّ والسرّ هو الطريق والطريق هو النهاية في الوقت نفسه فمن وصل بلغ أقصى درجات المعرفة والاتحاد من أراد أن يقترب من هذه المراتب فليكن قلبه صافياً كالزجاج النقي ولسانه مطوّعاً للحقيقة وعقله متيقظاً للمعاني وروحه مستعدة للتجلي فالطالب الحقّ لا يكتفي بالظاهر ولا يغفل عن الباطن بل يجمعبينهما فيرى النور في كل شيء ويكتشف السرّ في كل كتاب ويشعر بالمعنى في كل فعل.

واعلم أنّ الطريق طويل وشاق لكن من صبر وواصل أصبح كل ما يراه وكل ما يقرأه وكل ما يعيشه مرآة للحق وكل معرفة نورًا وكل عمل حياةً للمعنى وكل لحظة قربةً إلى الحق وكل نفس تحليقاً في فضاء الحقيقة.

أنّ الحفظ بلا تدبّر كالبحر بلا قاع يرشح منه الماء لكنه لا يختزن اللؤلؤ ولا يضيء أعماق الأسرار فالعالمُ الذي يكثر الكتب ولكنه لا يغوص في معانيها كمثل من يجمع رمال الصحراء بلا هدف يزداد كومةً بلا معنى أما من جمع بين العلم والعمل فقد صار كل حرفٍ يقرأه نورًا في قلبه وكل معنى يعيشه حقيقةً تتجلّى في روحه.

وكل طالب يسعى إلى معرفة الحقائق العليا يجب أن يدرك أنّ الزمن نفسه مدرسة وأن التجارب اليومية مرايا تعكس حال القلب فمن تعلم النظر بعين الحكمة رآى في كل حدث درسًا وفي كل موقف إشراقًا وفي كل كلمة سرًّا فلا يغلق قلبه على ما يراه ولا يظلُّ عند الظاهر بل يسبر أغوار المعاني ويستشفّ الأسرار المستورة ويعرف أنّ العلم روح والعمل جسد وأن كل واحد منهما لا يكتمل إلا بالآخر.

فالبحر العميق يختزن اللؤلؤ في أعماقه والطالب الحق يختزن المعنى في قلبه ومن لم يبحر في أعماق الفكر ولم ينزل إلى جوهر المعرفة فقد حُجب عن الأسرار ومن غاص وفهم تجلّى له النور الذي لا يراه الغافلون فالعلم نورٌ في القلب والعمل روحٌ في الجسد والمعنى سرٌّ في الذات والتقوى نورٌ في الروح والزهد ممرٌ إلى السماء.

إنّ المرء إذا اكتفى بالحفظ دون تدبّر فقد وضع نفسه بين ظلال لا تُضيء وكأنّه ينظر إلى الشمس من خلف ستارٍ شفاف يرى الضوء لكنه لا يشعر بالحرارة يسمع القران لكنه لا يستمع فالمعرفة الحقيقية ليست في كثرة الحروف بل في القدرة على سبر المعنى وامتلاك القدرة على إدراك الروح التي تحمل السرّ.

الكتب مرايا والمرايا تعكس صورًا ولكن العين التي ترى من خلالها يجب أن تكون واعية والقلب الذي يفسر ما يراه يجب أن يكون صافيًا والروح التي تستقبل الحكمة يجب أن تكون مستعدة ومن جمع بين العين والقلب والروح عرف السرّ الذي لا يعرفه الباقون.

فالطالب الحقّ لا يقرأ فقط ليحفظ ولا يعمل ليظهر بل يجمع المعرفة بالعمل فيصبح كل فعلٍ يفعله نورًا وكل حرفٍ يقرأه حياةً وكل لحظة يعيشها تجليًا للمعنى وهذا هو السرّ الذي يقود إلى المراتب العليا حيث يختلطُ الطالبُ في المطلوب ويصبح العلم عينَه والعمل نفسه والمعنى قلبه فلا فرق بين الحافظ والمحفوظ ولا بين السالك والمسلك.

و أنّ العلم طريقٌ طويل مليء بالمنعطفات وأن كل درجة فيه تتطلب صبرًا وجهدًا فمن طلب العلم من دون تقوى حُجب عن سرّه ومن عمل بلا معرفة أضاع جهده في الظلال أما من جمع بين العلم والعمل والتقوى صار قلبه مرآةً صافية يرى

الحقائق كما هي لا كما يظنها الآخرون ويشعر بمعنى كل فعل قبل أن يفعله وكل كلمة قبل أن ينطق بها.

الطالب يجب يرى أن كل يومٍ مدرسة وكل موقفٍ مُعلم وكل تجربةٍ مرآة تعكس حال قلبه وكل كتابٍ مفتاح إلى سرٍّ عميق ومن لم يمعن النظر في هذه المرايا فقد بقي كالغريق في البحر يرى الأمواج بلا عمق ويشعر بالسطح دون معرفة أعماق اللؤلؤ أما من انتبه للنور واستخدم العين والبصيرة والقلب فقد بلغ ما لا يُدرَك بالحفظ وحده.

فالطالب يجمع بين الظاهر والباطن بين المعرفة والعمل بين القلب والعقل ويصبح كل ما يقرأه وكل ما يعيشه وكل ما يفهمه نورًا للروح وتجربةً للحياة وقربةً إلى الحق فلا يعود هناك فرق بين ما يُسمع وما يُرى وما يُطبّق بل يصبح كل شيء وحدة واحدة تتجلى في قلبه وروحه.

إن المعرفة الحقيقية ليست في كثرة الكتب بل في إدراك المعنى وفي أن يصبح العلم جزءًا من كيانك فمن تجاوز الحفظ إلى التدبّر والعمل وصل إلى التجلي فإذا وصل صار العلم عينَه والعمل نفسه والمعنى قلبه فلا فرق بين الطالب والحقيقة ولا بين الحافظ والمحفوظ.

وأنّ كل تجربة وكل فعل وكل كلمة تحمل نورًا للطالب الحقّ وكل لحظة من حياته مدرسة وكل نفس قربة إلى الحق فمن جمع بين العلم والعمل والتقوى والزهد أصبح قلبه مرآة صافية يرى الحقائق كما هي ويشعر بالمعنى في كل فعل قبل أن يفعله وكل كلمة قبل أن ينطق بها وكل لحظة قبل أن يعيشها.

فالطالب يمشي بين الظاهر والباطن بين المعرفة والعمل بين الحفظ والتدبّر فيرى النور في كل شيء ويكتشف السرّ في كل كتاب ويشعر بالمعنى في كل فعل ويصبح كل لحظة من حياته انعكاسًا للحق.

واعلم أنّ الطالب يرى أن كل شيء حوله مرآة وأن كل تجربة وكل موقف وكل كتاب يحمل سرًّا للذين لهم بصيرة فمن لم ينظر بعين القلب بقي في الظلّ يرى الصورة بلا روح يسمع الصوت بلا معنى ويقرأ الحروف بلا تدبر أما من جمع بين العين والقلب والروح فقد بلغ المراتب العليا وصار كل كتاب نورًا وكل معنى حياةً وكل لحظة قربةً إلى الحق.

فالطالب يجب أن يجمع بين الظاهر والباطن بين القراءة والتأمل بين العمل والتطبيق فيصبح العلم نورًا في القلب والعمل حياة للروح والمعنى جوهرًا للذات والتقوى دليلاً لكل خطوة ومن وقف عند الظاهر فقد حُجب عن الفهم ومن تجاوز الحفظ إلى التدبر وصل إلى نور المعاني.

إنّ كل كلمة تقرأها تحمل معنىً وكل معنى يحمل سرًّا وكل سرّ يفتح أبوابًا لم تكن تعرفها حتى يصبح كل فعل وكل كلمة وكل لحظة انعكاسًا للحقيقة العليا فلا فرق بين العلم والعمل ولا بين الحفظ والفهم ولا بين الطالب والحقيقة.

واعلم أنّ الطالب يرى في كل لحظة فرصة للتعلم وفي كل موقف مدرسة وفي كل كتاب نورًا يضيء قلبه فالطالب الذي يمشي بين الظاهر والباطن بين المعرفة والعمل بين القلب والعقل يجمعكل شيء في وحدة واحدة فيرى النور في كل كتاب والسر في كل تجربة والمعنى في كل فعل.

الباب الثاني : مناهج طلب العلم وضوابطه

الفصل الأول: ترتيب العلوم وأولويات التعلم

في مَراتبِ المعارف ومناهجِ الاكتساب: بحثٌ في طبائع العلوم وتقديمِ ما يَحسُنُ تقديمُه العلمُ في آيِ التنزيلِ سرٌّ مُودعٌ ومَركبٌ مرتفعٌ لا يُنالُ بصفقِ الألسنِ ولا بِقرعِ القلَمِ بل يُستفادُ بتجريدِ النفسِ عن حُجُبِ الوهمِ وتفريغِ الفؤادِ لمعرفةِ الحكم، ألا ترونَ إلى قولِه تعالى "قُل هَل يَستوِي الذِينَ يعلمونَ والذِينَ لَا يعلمونَ" فجعلَ أهلَ الفطنةِ فرقًا بين الدياجيرِ والبوارقِ ونَصبَهم أعلامًا في مَهامِهِ الطوارقِ وأثبتَهم مع سَفرَةِ الملائكةِ في سِلكِ الشهادةِ إذ قال "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إلا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بالقِسْطِ"

فالعِلمُ ليسَ مقصورًا على مسائلِ الفُتْيا وحدَها ولا محصورًا في الحلِّ والعَقْدِ فحسب بل هوَ أوسعُ مِنهُ مجارِيًا وأغوَرُ مَنهُ مَدارِيًا، يَتَشعَّبُ إلى مطالعةِ سِرادِقِ السَّماءِ ومجالي الأجرامِ العُلْيا وملاحظةِ آياتِ الأنفُسِ كما يُلاحَظُ التنزيلُ قال تعالى"سنرِيهِم آياتِنَا في الآفَاقِ وفي أَنفُسِهِم حتى يَتبيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ"

فاعقِلوا أنَّ العِلمَ جلاءُ القلوبِ ومِصباحُ الأرواحِ ومَن حُرِمَهُ فقد خابَ وخسرَ وانساقَ في مهاوي الغفلةِ واستبرَقَت عليهِ سُحبُ الجهالةِ، فلا رأى لوامِعَ البصائرِ ولا سمِعَ صَوائحَ الضمائرِ.

وقد وَرَدَ عن أساطينِ الأوائلِ: «العِلمُ سُلطانٌ قاهِرٌ مَن ظفِرَ بهِ عزَّ وقَدَرَ ومَن أعدمَهُ ذلَّ وصَغُرَ» فاطلبوهُ بأثقالِ الجِدِّ وأفانينِ الاجتهادِ ولا تغترُّوا بِقُشورٍ لا لُبَّ فيها ولا بزَخارفٍ لا جوهرٍ تحتها، فالعِلمُ الممدوحُ ما أورثَ الخشيةَ وأدنى إلى العبوديةِ لا ما أورثَ العُجبَ والكِبرَ.

إنّ النظرَ في ترتيبِ العلوم ليس ضربًا من العبث الفكري ولا نزوةً لسانية بل هو من صميمِ مباحثِ الحكمة النظرية؛ إذ بهِ يُستدلّ على مدارجِ الارتقاء العقلي وتُعرفُ منازلُ الإدراك الترتيبي كما يلوحُ من مذهبِ أهلِ المنطق حين قرّروا أنّ تحصيلَ المعقولاتِ لا يكون إلا بتقديمِ الأصول على الفروع والمبادئ على المقاصد والمقدّمات على النتائج إذ الشيءُ لا يُنال إلا بأسبابه ولا تُدركُ الغايةُ إلا من بابِ وسائطها.

فالعلومُ – وإنْ بدَت عند النظرةِ العجلى سواءً في مرأى الطلاّب – إلا أنّ لها مراتبَ وجودية واعتباراتٍ وظيفية بعضها أصلٌ ينبني عليه غيره وبعضها فرعٌ لا يقوم إلا على ساقٍ من أصلٍ متين ولعمري ما ضلّ من ضلّ من طلاب المعارف إلا إذ سوّى بين المختلفات أو خلطَ بين واجبات التقديم والتأخير فابتدأ بما حقُّه التأخر وتصدّى لما لا يُدرَك إلا بعد استكمال أسبابه.

فأولُ العلومِ التي ينبغي أن تُرتَّب في السُّلم المعرفي :علومُ الآلة إذ هي المفاتيح التي تُفَضُّ بها مغاليقُ سائر الفنون؛ أعني بذلك علومَ العربية من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ وما يتصل بها من أصولِ البيان والاشتقاق فإنها القاعدةُ التي عليها يُشيَّد فهمُ الوحيين الشريفين ولا ريبَ أنَّ مَن أراد ارتشافَ زلالِ الفقه أو أصولِه أو النفوذَ إلى مغاليقِ كلامِ المفسّرين والمحدّثين وهو عارٍ من آلةِ اللسان فإنما يقتحمُ واديًا بغير عدّة ويخوضُ بحراً بغير سفينة.

ثم يليها – في الرتبة الثانية – علومُ الوحيِ ذاتُها :من علم التفسير وعلوم القرآن والحديث روايةً ودرايةً وما يتصلُ بذلك من أصولِ الاستنباط إذ الوحيُ أصلُ الأصول وما سواه من العلوم الدينية فرعٌ وتابعٌ فلا يُتصوّرُ تقديم الفروع على أصولها ولا بناءُ الأحكام على غير أساسٍ من كتابٍ وسنّةٍ راسخة.

وبعد ذلك تأتي علومُ المقاصد :كالفقه وأصوله والكلام والعقائد إذ بها يتبينُ حكمُ الله في أفعالِ العباد ويمتازُ الحقُّ من الضلال وههنا يزلّ قدمُ غيرِ الراسخ فيدخل في الجدل قبل أن يضبطَ النصوص أو يخاصم في العقائد قبل أن يفقهَ أصولها النقلية والعقلية فيتيه في مهاوي التناقض.

وأما علوم الكمال والتحسين :كفنون الأدب والتاريخ والمنطق والفلسفة – فإنها وإن جلّ قدرُها وعظم نفعُها – فمحلها التلوُ لا التقديم إذ الغايةُ منها تكميلُ آلةِ العقل وتزيينُ الفهم لا بناءُ الأصول الاعتقادية أو الشرعية ومن قدّم المكمّل على المكمَّل به فقد انقلب عليه مقصده إذ جعل الوسيلة غاية والحاشية أصلاً.

واعلم أنّ هذا الترتيب ليس حصرًا جامدًا بل هو باعتبار الغالب، إذ قد يتداخل بعضها في بعض ويحتاجُ المتقدمُ إلى طرفٍ من المتأخر كما نصَّ على ذلك أئمةُ التحقيق من الغزالي إلى ابن خلدون، لكنّ الضابطَ أن يُبتدأ بما هو شرطٌ في غيره قبل الاشتغال بما هو مشروطٌ عليه فالنحوُ قبل التفسير وأصولُ الفقه قبل تفريعاته ومبادئُ العقيدة قبل دقائق الكلام.

وليس المقصود بالتقديم هنا مجردَ الزمان بل التقديمُ في الاعتناء بحيث يُبذلُ وُسعُ الطالب في تحصيل الأصول ثم يترقى في مراتب الكمال بحسب قابليته وسَعة وقته، ومن خلط هذا بذاك وقع في "التطفيف العلمي" فحملَ عقلاً عارياً إلى معركةِ الحجج أو طار قلبُه في أوديةِ الجدل وهو بعدُ لم يرسُ على قاعدةٍ منضبطة، فانظر كيف رتّب الشارعُ نفسهُ مراتبَ البيان، بدأ بترسيخ الأصول الكبرى في التوحيد ثم فصّل الأحكام ثم وسّع في دائرة الاجتهاد بعد استكمال النصوص، وهكذا شأن العلوم تُؤخذ على التدرّج والتمهّل لا على العجلة والاختلاط هذا هو الترتيب الحقّ لأولوية العلوم عند من وعى أسرارَ المراتب وأدرك أنّ العلمَ ليس تكديسًا

للمعلومات بل هو بناءٌ محكمٌ ذو أركانٍ وسواري، ومن رام الارتقاء بلا سلّمٍ منضبط كان كمن يريد بلوغ ذُرى الجبال على غير طريق.

الفصل الثاني: أهمية حفظ القرآن والحديث قبل التوسع

إنّ مدارَ التفقّه في الدين وحقيقةَ الترسيم على منهاج اليقين إنما يُستقى من مشكاة الوحيين: الكتاب العزيز والسنّة المطهَّرة، وليس يُتصوّرُ لطالبِ الحقائق الشرعية أن يُدرك حقائقها على وجهها أو يحيط بأسرارها كما يليق بها إن لم يكن قد ملأ صدره بآي القرآن نصًّا وأسند قلبه بأحاديث الرسول ضبطًا ورواية، فالحفظ هو الأصل وما عداه تبع، والتمكّن من النصوص هو القاعدة وما سواه إنما يُقام عليها.

ولقد جرت سنّةُ الأئمة الماضين وحذا حذوهم المحققون الراسخون أن يُقدِّموا الحفظ على الفهم ويثبّتوا الأصول قبل الفروع، فكان الفتى الناشئ يبدأ بحفظ القرآن كله عن ظهر قلب يردِّده آناء الليل وأطراف النهار حتى يستقر في عقله كالنقش في الحجر ثم يعطف على السنّة الصحاح فيحفظ جوامع الكلم والأحاديث الأمهات كالموطأ والصحيحين وما تيسّر من دواوين السنة ضبطًا بالسماع والتلقين، ومن رام التوسّع في الفروع قبل الإحكام في الأصول فقد قدّم الفرع على أصله وشيد بنيانًا على غير أساس.

وذلك أن النصوص هي مادة الاستنباط وعليها مدار الاجتهاد ومن لم يكن له بها إحاطة نصيّة فكيف له أن يستنبط أو يحقّق أو يوازن؟ وكيف له أن يميّز بين صحيح وسقيم أو ناسخ ومنسوخ أو عام وخاص وهو لم يحط علماً بالألفاظ التي منها تُستمد تلك الأحكام؟! إنّ التصدّي للتفسير والفقه قبل الحفظ كمن يحاول التصوير على صفحة ماء أو يبني صرحاً على كثيب متحرك.

ثم إنّ الحفظ ليس مجرد ترديد لفظي بل هو كما قرّره أهل التحقيق :جمع اللفظ في الذاكرة مع رسوخه بحيث يُستدعى عند الحاجة بلا كلفة وبهذا يتيسّر للطالب الاستحضار عند الإفتاء أو التدريس أو المناظرة ويغنيه عن كثرة المراجعة وتقليب الكتب وما زال أهل العلم يقولون"من كان علمه في كتابه كان غِبَّه أكثر من صَفْوِه" إشارة إلى أن المعتمد على المراجعة المحضة يتأخر عند المنازلة والمباحثة بخلاف من جعل النصوص جزءًا من حافظته.

إنّ أئمةَ الإسلام من السلف الصالح ما برحوا يقدّمون الوحيين على سائر العلوم، فابن عباس – حبر الأمة – ما نال رتبته إلا بحفظ القرآن ومعرفة التنزيل وأسباب النزول ثم بحفظ حديث رسول الله وفهمه، وكذلك الإمام الشافعي ابتدأ بحفظ القرآن صغيرًا وحفظ موطأ مالك غيبًا قبل أن يبلغ الخامسة عشرة ثم انطلق بعد ذلك في بحار الفقه استنباطًا وإفتاءً، وهذا شأن سائر الأئمة؛ إذ لا اجتهاد بغير نص ولا نص بغير ضبط وحفظ، ومن تأمل مآلات كثير من المتعالمين في عصرنا الذين انصرفوا إلى الفلسفات الفكرية أو جادلوا في المقاصد الكلية وهم عراة من نصوص الوحي عَلِمَ مغبة الإعراض عن هذا الأصل؛ فكثر الخلط عندهم واضطربت مفاهيمهم وصاروا يجادلون عن الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ولو أنهم ابتدؤوا بحفظ القرآن والحديث لكانوا على نور من ربهم ولما تاهوا في مهاوي الظنون وليس المقصود بالحفظ أن يصير المرء آلة تردّد الألفاظ بلا تدبر بل الحفظ هو الأساس الذي يُبنى عليه التدبر والفهم، وقد قال العلماء"الحفظُ قنطرةُ الفهمِ" فمن لم يحفظ لن يفهم على وجه التحقيق؛ إذ الفهم إنما ينزل على محفوظ حاضر والنص إن لم يكن في الصدر فهو في حكم الغائب.

ولذلك كان ترتيب التعلم الحق :حفظ القرآن كاملًا مع ضبط قراءاته ثم حفظ جوامع الحديث وأصوله ثم الاشتغال بفهم المعاني والأحكام ثم التوسع في سائر الفنون من فقه وأصول ولغة وتاريخ، أما القفز على هذه المرحلة فهو إخلال بنظام التحصيل وفساد في منهج الطلب، وقد عبّر بعض المحققين عن هذا المعنى بقوله" من تصدّر قبل أن يتفقّه تَفَنَّن ومن تصدّر قبل أن يحفظ تَهَوَّن ومن تصدّر قبل أن يتهذّب تَهتك " وهو بيت الحكمة في هذا الباب.

ومن اللطيف أن نجعل هذا المعنى في سياق قاعدة عقلية"التمكّن من المادة السابقة شرط لانتقال العقل إلى القضايا اللاحقة" فالنصوص هي المادة السابقة والاستنباط هو القضية اللاحقة ومن لم يملك المادة امتنع أن ينتج منها شيئاً صحيحًا، وهذا ما قرّره المناطقة في باب "شروط التصديق" حيث اعتبروا التصوّر شرطًا للتصديق والتصديق شرطًا للاستدلال والنصوص هي تصوّراتنا الكبرى التي ينبني عليها كل استدلال.

فمن أراد الرسوخ في العلم الشرعي فليحفظ القرآن والحديث أولًا وليجعلهما عمدته وزاده ثم ليتوسّع في المعارف والفنون فإن كل علمٍ بعد الوحي خادم ولا يخدم سيده من لم يحط به علمًا وحفظًا.

الفصل الثالث: طرق التحصيل الفعّال: الحفظ الفهم المذاكرة

اعلمْ – أرشدك الله – أنّ مَلَكات الإدراك البشري لا تنقادُ لأربابها إلا إذا روعِيَ في ارتياضها قانونُ التدرّج وتُصُفِّحتْ وجوهُ المعارف على نَسقٍ يوافقُ قَبولَ النفس واستعدادَ القريحة؛ فإنّ العلومَ على اختلاف أجناسها إنما تُنالُ بمسالك ثلاثٍ هي عُمدُ التحصيل: الحفظُ ثم الفَهمُ ثم المُذاكرة لا يستقيم سُلَّمُ الطلب إلا بها ولا تنفتح مغاليقُ المعارف إلا بمراعاتها.

أما الحفظُ فهو ضبطُ الألفاظِ والحقائقِ في مقرِّ الذاكرة بحيثُ يُستحضرُ عندَ الطلب بلا عُسرٍ ولا تلكّؤ، وليس الحفظُ مجرّدَ ارتسامِ أصواتٍ في السمع بل هو ما عبّر عنه المحققون بـ"النقش في سويداء النفس" وهو أصلُ التصوّر قبلَ التصدِيق وشرطُ كلِّ استدلالٍ لاحقٍ كما قرَّره المناطقة في أبواب البرهان، فمَن لم يُحكِم الحفظَ كان كمن يبني على رملٍ سائغٍ تذروه الرياح إذ لا فائدةَ في فَهمٍ لا مادةَ له ولا ثمرةَ لا أصلَ لها، ومن ههنا قالوا "مَن كان عِلمه في دَفاتره كان غِبَّهُ أكثرَ من صفوه" لأنَّ استحضارَ العلم عند المناظرة أو الاستنباط لا يُغني فيه الرجوعُ إلى الصحائف.

غير أنّ الحفظَ ليس متروكًا للهوى بل له طرائقُ وضوابطُ؛ فمنها التكرارُ على وجهٍ دوريٍّ محسوب وارتباطُ المعاني بصُوَرٍ ذهنية تُثبّتها وتوخّي صفاءِ النفس عند التلقّي إذ النفسُ المشغولةُ لا تُمسِكُ المعنى ولو كُرِّرَ ألفَ مرة، وقد نَبَّه على ذلك أهلُ التربية الروحية حين قرنوا صفاءَ السريرة بحدَّةِ الذاكرة.

وأما الفَهمُ فهو نُفاذُ البصيرة إلى معاني ما حُفظ وربطُ الجزئيات بالكليات والنصوصِ بأصولها ومقاصدها؛ فالحفظُ بذرٌ والفَهمُ إنباتٌ وإزهار وليس الفهمُ قاصرًا على إدراك معنى مفردٍ في حيِّزه بل هو كما قرّر أهل التحقيق" تصييرُ المعنى المحفوظ جزءًا من البنية الذهنية بحيثُ يَلزمُ لوازمه ويتعدّى إلى نظائره " ولذا شرطوا له أدوات: من تفقُّه في اللغة التي بها عُبِّر النص وإلمامٍ بأسباب الورود وإحاطةٍ بسياقات الأقوال.

ومن طرائق الفهم: التدرّج من الظاهر إلى الأعمق ومن المجمل إلى المفصّل ومقارنة النصوص بعضها ببعض حتى يُستخرج المعنى الدقيق وههنا يُخطئ من يظن أن الفهمَ يتمُّ بمطالعةٍ عابرة؛ بل هو عملٌ تحليليٌّ تركيبيٌّ كما هو معلومٌ في

صناعة الأصول حيث لا بدَّ من الجمع بين "التصوّر" و"التصديق" لإنتاج العلم اليقيني.

وأما المُذاكرةُ فهي تعاهدُ المحفوظ والمفهوم بالمباحثة والمدارسة إذ العلمُ إذا تُرك بلا مدارسةٍ درسَ وزال وإذا تداولَه الأقرانُ ثبتَ ورسخ، والمذاكرةُ ليست إعادةً ميكانيكية لما سبق بل هي – كما قرّره أهل النظر – عمليةُ اختبارٍ للعقل في استدعاء المعاني وربطها بالسياقات المختلفة وإعمال الفكر في نُصوصها ولهذا كان السلفُ يتواصَون بالمذاكرة ويجعلونها قوامَ حياتهم العلمية.

وقد شبَّه بعضُ المحققين طرائقَ التحصيل بـ"سُلَّم البرهان" في المنطق: فالحفظُ بمنزلة المقدمات الأولية والفهمُ بمنزلة الاستدلال النظري والمذاكرة بمنزلة الامتحان التكراري الذي يُثبت النتائج ومن أهمل واحدةً منها اختلَّ بناءُ علمه فمَن حَفِظ ولم يفهم كان كالحاملِ وِقرًا لا يدري ما فيه ومن فَهِم ولم يحفظ كان كمن له عقلٌ بلا مادةٍ يشتغل عليها ومن ترك المذاكرةَ نسيَ ما عَلِمَ وصار كمن بنى بيتًا وتركه حتى خرب.

ومما يُدقِّقُ النظر فيه أن هذه المراتب ليست ترتيبًا زمنيًا محضًا بل هي أيضًا تراتبيةٌ وظيفية إذ قد تتداخل فيحصلُ بعضُ الفهم أثناء الحفظ ويكونُ من المذاكرة ما يُثبّت الفهمَ والحفظ معًا لكن الأصل أن يُستوفى لكل مرتبةٍ حقها ويُؤدّى فيها الجهدُ الأوفى حتى يُمكن الانتقال إلى التي تليها على وجهٍ سليم، وهكذا يتبيّن أنّ طرائق التحصيل الفعّال ليست بدعًا من القول بل هي امتدادٌ لسنن العقل في تحصيل المعرفة كما تشهد له سيرُ الأوائل من الحفاظ والمتفقهين فما بلغوا ما بلغوا إلا بملازمة هذه الأركان الثلاثة والطالبُ الذي يُخلّ بها كالمسافر

الذي يقطع الطريق بلا زادٍ ولا دليل قد يَضلّ قبل أن يبلغ غايته وإن بلغها بلغها منهكًا.

الفصل الرابع: أهمية التدرج وعدم القفز على المراحل

إنّ من أشنع ما ابتُلي به طلاّب المعارف في أزمنتنا إهمالُهم لسنن الله في تحصيل العلوم وإغفالُهم أنَّ لكل معرفةٍ مدارجَ ولكل فَنٍّ أصولاً وأبواباً لا يُنفَذ إلى غايتها إلا من أبوابها وكيف يُتصوَّر إحكامُ العِلَل والنظائر أو فقهُ المقاصد والدقائق لمَن لم يُحكِم ألفاظَ الأصول ولم يَستَمسك بعُرى المبادئ؟!

وقد أجمع الأوائل على أنّ العلم شجرةٌ أصلُها الفهمُ القويم وجذعُها الحفظُ المتين وأغصانُها المدارسة وثمرُها الحكمة والعمل فلا يُبتغى الثمرُ قبل بزوغ الغصون ولا الغصون قبل رسوخ الجذع ولا الجذع بغير أصلٍ ممتدٍّ في تربةٍ طيبةٍ من التدرّج والتزكية.

ولقد نادى الأئمّة كابن خلدون في مقدّمته بأنَّ الطفرة في التعلّم مُستَحيلةٌ عادةً إذ "من طلب المعالي جملةً سقط عنها كلُّها" بل لا بدّ من الانتقال من السهل إلى الأصعب ومن المُحكَم إلى المُتشابِه ومن الجزئي إلى الكُلّي حتّى يتمّ لطالب العلم النضجُ في أدواته ثمّ يُؤذَن له في اقتحام المعمَّيات.

ومِمّا تقرّر عند الحكماء أنّ العلوم أشبه بالمَراقي الموصلة إلى السطح فمن رام ارتقاء الدرجات وثباً سقط وهلك ومن ارتقاها سلّماً سلَّماً بلغ مأموله في أمنٍ وعافية، فمن لم يحفظ متونَ الأصول في النحو والفقه والحديث كيف له أن يَخوض في دقائق الخلاف أو ينفذ إلى أسرار المقاصد أو يميّز بين الرُّتَب في الاستدلال؟!

بل إنّ الانتقال عن المرحلة قبل استيفائها ضربٌ من العُجب المذموم إذ يجعل الطالب يتوهّم أنّه بلغ الغاية قبل التهيؤ فيقع في أوهامٍ عقدية وعلمية ويَستعصي عليه ردُّ الشُّبَه أو فَهم كلام الأكابر ولهذا قرّر أهل العلم أنّ "من حُرم الأُسس حُرم الوصول" وأنّ من قدّم الكماليات على الضروريات لم يَبلغ شيئاً.

والتدرّج ليس كسلاً ولا بطالة بل هو قانون إلهي إذ أنزل الله الوحي على أقساط وربّى الصحابة على مراحل فجاء التشريعُ مُراعياً لطبائع الناس في الفهم والتلقّي وكذلك كلُّ علمٍ يُطلَب يبدأ بمختصراته ثم شروحه ثم حواشيه ثم مطالعات المتبحّرين فيه.

ومن فاته هذا الأصل وقع في آفة "التخبّط العلمي" ترى الطالب يقرأ في دقائق الفلسفة والمنطق وهو لا يفرّق بين الفعل والاسم أو يتكلّم في مقاصد الشريعة ولم يضبط أبواب العبادات أو يَخوض في علل الحديث ولم يحفظ متناً واحداً على وجهه، هذا وأشباهه سببٌ في ولادة "أنصاف المتعلمين" الذين يَغرّون العوامَّ بسطحيةٍ مشوَّهة.

فالواجب إذاً أن يُلزِمَ المبتدئُ نفسَه جادّةَ الأوائل فيحفظ القرآن أولاً ثمّ متون الحديث ثمّ مختصرات الفقه والنحو ويستعين على ذلك بالشرح والتفهيم والمجالسة لأهل الرسوخ ثمّ ينتقل إلى المطوّلات إذا استوى عوده وهذا هو معنى "التدرّج" الذي به تُنال البركة ويُصان العلم من الضياع والابتذال وفي الجملة فإنَّ التدرّج في التعلّم أصلٌ كونيّ وشرعيّ مَن راعاه بلغ الغاية ومن تجاوزه قَفزاً سقط في مهاوي الانتحال والغرور والعاقل من فقه أنّ العلوم كالأنهار تُرتشَف من منابِعها الصافية ثم يُتدرَّج إلى مصابِّها العميقة ولا يُغترّ بزَبدها قبل تذوّق مائها العذب.

الفصل الخامس: أهمية التلقي عن العلماء والرجوع إلى أهل الذكر

الحمدُ للهِ الَّذي أفاضَ على أولي الألبابِ من معينِ الحكمةِ المُصفّى وأنطقَ ألسنةَ الحقِّ بالبرهانِ الجليّ وجعلَ ورثةَ الأنبياءِ أمناءَ الوحي وحملةَ الأثر والمستحفظينَ لما اندرس من معالمِ الدِّين فصلّى اللهُ على سيِّدنا محمّدٍ مُعلِّمِ البريّة ووارثِ الحكمةِ الأزليّة وعلى آلهِ وصحبِه مصابيحِ الدُّجى وبعد:

اعلمْ – وفّقكَ اللهُ لِدَرْكِ الحقائق – أنّ من أغمض الغوامض وأشدِّ ما التبسَ على طائفةٍ من طلابِ المعارفِ في الأعصارِ المتأخِّرةِ: اعتقادُهم أنّ مداركَ العلومِ تُنالُ بمحضِ التصفّحِ والتتبّعِ في أسفارِ المُصنّفات وأنَّ استمدادَ المعارفِ يُستغنى فيه عن صِحبةِ الرَّاسخينَ وما ذاكَ إلّا جهلٌ بمواقعِ الفيضِ ومنازلِ العلمِ في قلوبِ العارفين فإنّ العلومَ – لا سيما علومُ الدِّين – لها أنوارٌ ربانيّةٌ وسَرائرُ قدسيّة لا تُدرَكُ بالوَهمِ الظَّانّ ولا بالفكرِ العَانّ بل لا بدّ لها من واسطةِ مَن أُوتيَ فهمَ النصوصِ وأَحاطَ بمآخذِ الأحكامِ وأسرارِ السننِ وهمُ الّذين شهدَ لهم الشرعُ بأنَّهم أهلُ الذكر فقالَ العليمُ الحكيم "فاسألوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تعلمون"

ولقد درجَ الأوائلُ – رحمهمُ الله – على أن يجعلوا لِطالبِ الفقهِ والعقيدةِ شيخاً يتلقَّى عنه ويذبُّ عن ذهنهِ غوائلَ الفهمِ السقيم ويُقوِّمُ له مِيلَ الطبعِ إذ الطبعُ أمّارٌ بالانحرافِ إن خُلّي وفِطرته فكم من متفقِّهٍ استبدَّ برأيه فتاهَ في وهادِ البدعة وكم من مُحدِّثٍ اكتفى بمجردِ الروايةِ فزلَّ في التفسيرِ والعللِ لعدمِ شيخٍ ناصحٍ يرشده، ألم ترَ إلى قولِ ابنِ سيرين" إنَّ هذا العلمَ دينٌ فانظروا عمّن تأخذون دينكم" فجعلَ التلقّي عن أهلِ الثِّقةِ ركناً ركيناً لحفظِ الشريعةِ وصيانةِ معالمِها.

ومن أمعنَ النَّظرَ في طرائقِ التلقّي تبيَّن له أنّ لها مراتبَ وأطواراً أوّلُها السماعُ والمشافهةُ فإنَّ للفظِ عندَ المخاطبةِ سلطاناً على النَّفسِ لا يُدرَكُ بالقراءةِ وحدها

وثانيها التلقينُ والضَّبطُ بالمناقشةِ والاعتراض إذ العقلُ قد يَسْتَوحشُ من المفاهيمِ الغامضةِ حتّى يُبدّدَ ظُلماتِه سؤالُ الفطنِ وجوابُ المتمرِّس، وثالثُها الإجازةُ والشهادةُ من الشيخِ الراسخ فهي بمثابةِ شهادةِ العدولِ على كفاءةِ الطالبِ وصِدقِ حملِه، وهذه المراتبُ إذا تُرِكَتْ وركنَ المريدُ إلى مُجرَّدِ التعلّقِ بأذيالِ الكتبِ والأوراق كانَ حالُه كما قالوا" مَن كانَ شيخُهُ كتابَهُ كانَ خطؤهُ أكثرَ من صوابِه."

ثمَّ اعلم أنَّ الرجوعَ إلى أهلِ الذكرِ ليسَ قاصراً على المبتدئين بل هو فرضٌ متعيِّنٌ على النُّجباءِ وإن عَلَوا لأنَّ العلمَ بحرٌ لا ساحلَ له والإنسانُ – وإن بلغَ الغاية – فقد تخفى عليه دقائقُ المباحثِ وخبايا الأدلَّة فيستضيءُ بأنوارِ مشايخهِ وأقرانِه ولا يأنفُ من التعلّمِ ما عاش، ألم ترَ إلى إمامِ دارِ الهجرةِ مالكٍ وقد سألهُ السائلُ عن أربعينَ مسألةً فأجابَ في بضعٍ منها وقالَ في سائرِها " لا أدري " فكانَ ذلك أبلغَ في بيانِ ضرورةِ التواضعِ للعلمِ وأهلهِ.

ولقد نجمَ في عصرِنا من ظنَّ نفسَهُ في غنيةٍ عن العلماء فاتَّخذَ من محرِّكاتِ البحثِ ومتونِ الشبكاتِ شيخاً فزلّتْ أقدامُه في مهاوي الفتاوى المضلِّلةِ وجرَّ على الأمَّةِ ويلاتٍ من الفوضى الفكريّةِ والجرأةِ على النصوصِ، فليتَ شعري! أيكونُ مَن قرأ نصّاً بلسانِه كمن تشرَّبه قلبُه عن أفواهِ الرَّاسخينَ المتحققينَ بأسرارِ الوحي؟

فالواجبُ على كلِّ مريدٍ للحقائقِ أن يلزمَ بابَ العلماءِ الأثبات ويستمسكَ بغَرْزِهم ويعرِفَ لهم قدرَهم فإنَّهم القومُ الّذينَ ارتضاهم اللهُ لوراثةِ أنبيائِه وجعلَ على أيديهم صيانةَ الشرعِ ونقلَ الهُدى، وبذلك تُدرَكُ بركةُ العلمِ وصوابُ الفهمِ وتُوقَى الفِتنُ والزللُ ويُنالُ رضا اللهِ في الدُّنيا والآخرة.

الباب الثالث : مراتب طلاب العلم وصفاتهم

إنَّ طلب العلم عبادة جليلة ومرتبة رفيعة وطريقٌ إلى مرضاة الله وهو السبيل إلى فهم الوحي وتزكية النفس وعمارة الأرض وقد رفع الله شأن أهل العلم فقال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وجعل العلم مقرونًا بالتقوى فقال :﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وليس طلاب العلم جميعًا في درجة واحدة بل هم طبقات ومراتب يعلو بعضهم فوق بعض بصدق النية وصفاء القلب وشدة الاجتهاد وعمق التقوى، ولكل مرتبة صفات تميّزها ولكل درجة علامات تُعرف بها حتى يبلغ الطالب مقام الرسوخ الذي يجمع بين العلم النافع والعمل الصالح والخشية الصادقة.

الفصل الأول: معنى طلب العلم وحقيقته

طلب العلم ليس مجرد جمعٍ للمعلومات ولا مطاردةٍ للألقاب الأكاديمية بل هو سلوك تعبدي غايته القُرب من الله ومعرفة الحق ونفع الخلق وقد كان السلف يعدّون النية في طلب العلم أصلًا في قبوله وثمرته فالعلم بلا نية صالحة جسد بلا روح وربما صار وبالًا على صاحبه، يا طالب النجاة ويا ساعياً في دروب الهداية اعلم أنّ أبواب القرب من الله ليست متساوية ولا دروبها سواء ولكنّها تتفاوت بقدر صفاء النيّة وخلوص القلب وحُسن السلوك، وإنّ أعظم ما يُبلّغ العبدَ منازل الرضا أن يجمع بين نور العلم ومقام الزهد فيكون عقله معلّقاً بالمعارف وقلبه منزوعاً عن حطام الدنيا ولسانه ذاكراً وجوارحه خاشعة وروحه ترفرف في أفق القرب الإلهي.

فالعلم يا أخي روح القلوب ومصباح الصدور وسراج الأرواح وهو المنادي إلى معرفة الله والدليل على وحدانيته والمرشد إلى شرائعه وأحكامه، فما طُلب القرب

إلا بالعلم ولا تيسّرت الطاعة إلا بالفقه ولا استقامت العبادة إلا بالبصيرة، وإنّ من عبد الله بغير علم فقد ضلّ عن سواء السبيل وكان كالسائر في الظلمة يتخبّط لا يدري أن يقع في حفرةٍ أو يصطدم بحجر.

لكنّ العلم وحده إن لم يصحبه زهدٌ يقطع علائق الدنيا كان كالسيف المرهف في يدٍ رعناء وربما كان حجةً على صاحبه لا له، فالزهد سياج العلم وهو حارس القلب من غوائل الشهوة ومفتاح الباب إلى جلال الله وعظمته، الزهد ليس بترك المال كله ولا بلبس المرقّع من الثياب ولكنه قصر الأمل وتطهير القلب من علائق الفناء والنظر إلى الدنيا بعين الاعتبار لا بعين الاغترار.

فانظر رعاك الله، من تقرّب إلى الله بالعلم وحده قد يُخشى عليه العُجب ومن تقرّب إليه بالزهد وحده قد يُخشى عليه الجهل وإنما الكمال أن يجتمع الاثنان فيكون العبد عالماً زاهداً يجمع بين نور العقل وصفاء القلب يعبد الله على بصيرة ويتواضع له على يقين.

ألا ترى أنّ العلماء الربّانيين إنما بلغوا مراتبهم بالجمع بين هذين الأصلين؟ فالإمام أحمد كان بحراً في العلم ومع ذلك كان زاهداً في دنياه قنوعاً بما قسم الله له، وابن المبارك كان يطوف البلدان يطلب الحديث فإذا خلا بنفسه بكى من خوف الله كأنّ بين جنبيه قلب راهبٍ قديم وهكذا مضى السلف عُلومٌ تزكّي الأرواح وزهدٌ يطوي صفحات الدنيا من القلوب.

فيا من ضيّع عمره في طلب العاجل! أما آن لك أن تدرك أنّ هذه الدار ظلّ زائل وسرابٌ خادع؟! أما علمت أنّ من بنى قصراً في الدنيا ربما انهار عليه ومن جمع مالاً تركه لغيره وأنّ العلم بالله هو الباقي والزهد في الدنيا هو الجنة؟!

إنّ القلب إذا صُقل بالعلم تلألأ وإذا خُلي عن زخارف الدنيا أشرق فإذا اجتمع له النوران صار كمرآةٍ صافيةٍ تعكس أنوار القرب الإلهي، هنالك يسجد العبد فيغدو سجوده جِناناً ويبكي فتكون دموعه أنهاراً من الرحمة ويذكر الله فتطير كلماته إلى السماء كنجومٍ تتلألأ في ليلٍ بهيم.

فاعمل –رحمك الله– أن يكون علمك سلّماً لا وثناً وزهدك مركباً لا عائقاً واجعل غايتك رضوان الله لا مدح الناس فإنّ الدنيا إلى زوال والآخرة إلى دوام والسعيد من عقل عن الله مراده فجمع بين العلم والزهد .

يا هذا إنّما الدنيا جيفةٌ منتنة والخلق عليها كلابٌ عاوية يتهارشون على عظامها ويقتتلون على أوصالها فإذا جاءهم الموتُ انتزعت أنيابُهم وتهاوت مخالبُهم وبقوا كأجسادٍ خاويةٍ لا تملك لنفسها دفعاً ولا نفعاً أفلا تعقِل؟! أفلا تُبصر أنّ العمر ظلٌّ زائل وأنّ أيّامك مراحل تطويك طيَّ السجلِّ للكتاب؟!

ألا وإنّ أقصر الطرق إلى الله طريقان :علمٌ يفتح بصيرةً وزهدٌ يطهر سريرةً، فالعلم مصباح العقل والزهد مفتاح القلب ومن لم يجمع بينهما لم يذق للعبودية طعماً ولم يبلغ في القرب مقاماً، إنّ من تعلّم ولم يزهد كان كمن جمع الحجارة فوق كتفيه ثم أراد أن يطير وإن من زهد ولم يتعلم كان كمن أراد أن يسير في التيه بلا دليل فضلّ وهلك.

أمَا سمعت قول الحكماء" *العلم حياة القلوب من الجهل والزهد دواء النفوس من العلّة"* فما بال أقوامٍ شغلهم التكاثر حتى طمس على أعينهم وغطّى على بصائرهم فهم كالعميان يتخبّطون لا يدرون أيّهم يُقبل عليه ملك الموت قبل صاحبه.

يا طالب القرب! إنّ العلم لا يُنال بالكسل ولا يُستدرَك بالغفلة؛ إنّه غرسٌ لا يُثمر إلا بجدٍّ وسهرٍ وصبرٍ على وعورة الطريق وإنّ الزهد ليس ثوباً بالياً ولا كسرةً يابسة ولكنه أن تخلع عن قلبك ربقة الدنيا وأن تصير حرّاً من سلطان الهوى، الزهد أن ترى القصور كالأطلال والذهب كالغبار والسلطان كخيالٍ يزول مع الصبح.

أفلا تعجب من عبدٍ يُؤتى عقلاً فلا يسخّره في معرفة الله؟! أو يُؤتى علماً فلا يجعله سُلّماً إلى مولاه؟! هيهات هيهات! ما أشدّ غفلة الإنسان عن نفسه وما أقربه إلى التراب الذي منه خُلق وإليه يعود.

انظر إلى العلماء الزهّاد كانوا ملوكاً بلا تيجان وأرباباً بلا سلطان عقولهم مضيئة كالمصابيح وقلوبهم طاهرة كالماء الزلال إذا قيل لهم: الدنيا قالوا: سجنٌ للروح، وإذا قيل لهم: الآخرة قالوا: دارُ القرار، كانوا إذا ذكروا الموت بكت عيونهم وإذا ذكروا ربهم طارت قلوبهم شوقاً كأنّها طيورٌ متلهّفة إلى أوكارها.

فيا أيها الغافل الزم باب العلم حتى يُفتح لك وتوسّد فراش الزهد حتى تنام عنه شهواتك واجعل قلبك مهيعاً لأنوار الله فإنّما القرب درجات وأرفعها أن تصير عالماً زاهداً كأنّك منكسِرٌ بين يدي الله في محرابٍ لا يزول.

واعلم أنّك إن طلبت الدنيا فاتتك وإن أعرضت عنها أتتك وإن تشاغلت بها أفسدت قلبك وإن هجرتها صفا قلبك وصار كمرآةٍ صافيةٍ تنعكس عليها أنوار الملكوت، وحينئذٍ تصير حياتك عبادة ونَفَسك تسبيحاً وخطواتك إلى الله قربى.

فاجعل العلم مركبك والزهد زادك والآخرة مقصدك ووجه الله غايتك يكن لك عند الله مقامٌ يُدهش العقول ويُبهر الألباب .

الفصل الثاني: مراتب طلاب العلم

يا سائراً في مدارج الإدراك إنّك إن عرّجت بفكرك على مطاوي العلم رأيت أنّه لا يُنال قَطعاً إلّا بمجاهدةٍ للهوى ومغالبةٍ للكسل ومفارقةٍ لمألوف الطبع فإنّ العلمَ بحرٌ متلاطم لا تبلغه السابحة إلا إذا نزعت عن عاتقها أثقالَ الدنيا وطرحت من كفّها فضولَ الملاذّ واعلم أنّ طلاب العلم على طبقاتٍ متفاوتة ومراتب متباينة لا يستوي طرفاها كما لا يستوي السرابُ بالكوثر ولا الظلمةُ بالنور وقد صنفتُ طلاب العلم على غرار تصنيف الامام الشاطبي حيث صنف طلاب العلم الى:

المرتبة الأولى: ناقص العلم بالكليات والجزئيات.

المرتبة الثانية :العالم بالكليات دون الجزئيات.

المرتبة الثالثة :العالم بالكليات والجزئيات.

أما تصنيفي المتواضع فهو :

1. النشأة (المبتدئون)

هؤلاء هم الذين أقبلوا على العلم في بداياتهم تتوهج قلوبهم بالرغبة لكن عقولهم ما زالت في طور التكوين.

- صفاتهم : كثرة الحفظ محبة الشيوخ التعلّق بالكتب الأولى.
- خطرهم : العُجب المبكّر والاغترار بالقليل من العلم.
- دواؤهم : ملازمة التقوى والتواضع والحرص على الأدب قبل العلم.

2. المتوسطون

وهم الذين جاوزوا المراحل الأولى وأخذوا حظًا من الفهم والتحليل.

- صفاتهم : القدرة على المقارنة بين الأقوال ونشوء ملكة الترجيح.
- خطرهم : الانشغال بالجدل على حساب التزكية.
- دواؤهم: صحبة العلماء الربانيين والتعمق في فهم مقاصد الشرع والتمسك بالتقوى كحارس للعلم.

3. المتقدّمون

وهم الذين رسخت أقدامهم وصارت لهم ملكة اجتهادية وبصيرة نافذة.

- صفاتهم : رسوخ في الفهم إحاطة بأصول العلوم واعتدال في النظر.
- خطرهم: الكِبر العلمي والغفلة عن محاسبة النفس.
- دواؤهم :دوام المجاهدة والإكثار من ذكر الله والوعي بأن العلم الحقيقي يورث الخشية لا الغرور.

4. الراسخون

وهم الغاية العليا لطلاب العلم الذين جمعوا بين الفقه في الدين والزهد وتعليم الناس.

- صفاتهم :الحكمة التواضع الزهد في الدنيا الجمع بين العلم والعمل.
- مكانتهم :هم ورثة الأنبياء ومصابيح الهدى الذين يُنتفع بعلمهم ويُقتدى بسلوكهم.

فتأمّل أيّها الواقف على باب العلم: أترضاك نفسك أن تقف عند أطرافه كالواقف على الشاطئ يبلّ كفّه بماء البحر ولا يغوص في أعماقه ليستخرج الدرر؟! أم تحب أن ترتقي مدارج الربّانيين حيث الصفاء والأنوار؟! إنّما العلم مركبٌ والزهد جناحٌ

والآخرة مقصدٌ فمن جمعها كان في معارج القرب ومن فرّط في واحدٍ منها هوى في مهاوي البعد فاجعل قلبك موطناً للعلم وروحك مسكناً للزهد ونفسك مشغولةً بذكر الله تكن في الأرض علَماً وفي السماء نجماً وتسمع في يوم العرض الأكبر" هذا عبدٌ طلبني بالعلم وقصدني بالزهد وصدق في مسعاه فاليوم أُدنيه وأُكرمه"

الفصل الثالث: صفات طالب العلم الحق

اعلم أنّ طالب العلم الحقّ ليس هو الذي يُزيّن ظاهره بالمحابر والدواوين ويُكثِر من جَمع السطور في الرقوق بل هو الذي صاغت الأيام قلبه صياغةً وامتحنته المحن امتحاناً فخلُص من كدر الهوى كما يخلُص الذهب من أتون النار فإنّ العلم جواهرُ لا تُعطى إلا لمن باع نفسَه للطلب وجرّد قلبه من علائق الشهوات وصبر على وعورة المسالك وجرس الألفاظ ومضض الجوع والسهر.

طالب العلم الحقّ هو الذي يأنف أن يكون علمه كزينةٍ تُعَلَّق على جدار أو كزخرفٍ يُشهر بين العوام بل يطلبه ليبني به في قلبه هيكلاً من اليقين لا تزعزعه العواصف ولا تزلزله الشُّبه فهو إذا جلس إلى الكتب جلس كما يجلس العابد إلى محرابه لا يقرأ ليُقال قرأ ولا يكتب ليُقال كتب ولكنّه يستنزل من بين الحروف أرواح المعاني كما يستنزل الغيم قطراته.

ومن صفاته أنّه لا يرى نفسه أهلاً للعلم وإن حاز أضعاف ما حاز غيره؛ لأنّ العلم بحرٌ لا يُدرك ساحله وكلّما غاص فيه ازداد شعوراً بأنّ ما خفي عنه أعظم ممّا ظهر له فهو في تواضعه كالغصن المثمر كلّما ازداد حملاً ازداد انحناءً ولو قيل له قد بلغت لبكى خجلاً من ربّه إذ يرى نفسه في أوّل الطريق.

وطالب العلم الحقّ يُفرّ من الشهرة فرار الظبي من السبع؛ إذ يعلم أنّ العلم إذا اقترن بالرياء صار وبالاً على صاحبه وأنّ العالم إذا قصد بعمله الرياسة هلك كما

تهلك السفينة إذا حملت فوق طاقتها فلا يطلب بسلطانه سلطاناً ولا بجلاله وجاهة إنما يطلب أن ينقذ نفسه من غياهب الجهل وأن يردّ غيره من مهاوي الضلال.

ثمّ اعلم أنّه لا يُعاشر الهوى ولا يُصغي إلى وساوس الشيطان فإنّ الهوى آفة العلماء والشيطان خصم الحكماء ومن غلبه هواه لم يُنتفع بعلمه بل طالب العلم الحقّ يروض نفسه على الزهد ويُطعمها خبز الصبر ويسقيها ماء الخشية فإنّ العلم بلا خشية جسدٌ بلا روح وهيكلٌ بلا حياة.

ومن صفاته أنّه يُميّز بين العلم الذي يُرفع به في الدنيا ولا يُرفَع به عند الله وبين العلم الذي يورث الخشوع والوجل فإنّ العلم الذي لا يُثمر عملاً كغيثٍ نزل على سبخةٍ ملحٍ لا تُنبت فهو يسعى أن يكون علمه قنديلاً يُضيء صدره أولاً ثمّ يفيض نوره على من حوله.

وهو كذلك مُجاهدٌ في ليله ونهاره يضرب بسيف الفكر على جيوش الجهل ويُبارز كلّ شبهة برمح الدليل فإن اعترضته الشكوك جعلها مطايا لليقين وإن داهمته الظلمات اتّخذها جسراً للنور وإذا خالط الناس لم يكن كسائرهم بل كان بينهم كالنجم في دياجير السماء لا تراه العيون الكليلة ولكنّ المهتدي يعرفه بدلالته.

فطالب العلم الحقّ ليس هو ابن كتابٍ وحبرٍ فقط بل هو ابن رياضةٍ للنفس وتهذيبٍ للروح ومكابدةٍ للزمان، من لم يذُق مرارة الطلب لم يذُق حلاوة العلم ومن لم يُزكِّ نفسه لم يشرق عقله ومن لم يزهد في دنياه لم يصفُ لعلمه معنى.

فهو في الناس قليل بل أعزّ من الكبريت الأحمر وإن وُجد فإنّما يُعرف بعلاماته: عين دامعة وقلب خاشع ولسان صادق ونفس متواضعة وهمة لا تعرف الوقوف
و من صفاتهم :

1. الإخلاص :فلا يطلب بعلمه دنيا ولا جاهًا وإنما يبتغي وجه الله.
2. التواضع :إذ كلما ازداد علمًا ازداد تواضعًا كما قال ابن المبارك :*لا يزال الرجل عالمًا ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل*.
3. الأدب :وهو أساس كل تعلم إذ من فقد الأدب لم يُفلح ولو حاز من الكتب أطنانًا.
4. الصبر :طلب العلم مشقة يحتاج إلى طول نفس وصبر على السهر والبحث.
5. العمل بالعلم :وهو أعظم صفاتهم؛ إذ العلم بلا عمل حجة على صاحبه.

الفصل الرابع: التقوى أساس طلب العلم

العلم بلا تقوى يورث القسوة ويجعل صاحبه عُرضة للغرور أما العلم مع التقوى فيثمر الحكمة ويمنح صاحبه نورًا يميّز به بين الحق والباطل وقد قال تعالى :﴿*وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ*﴾ فالتقوى شرط في تحصيل العلم النافع وهي التي تحفظ العالم من الانحراف وتجعله أمينًا على ما تعلم، إنّ شجرة المعارف لا تُؤتي أُكُلَها إلا إذا سُقِيَت بماء التقوى إذ هي الجذرُ الراسخ في أرض القلوب والوتدُ الممكّن لصرح العلوم أن يعلو في سماوات الإدراك فالعلم المجرّد عن التقوى وإن اتّسعت دوائره وتفجّرت ينابيعه لا يعدو أن يكون هباءً منثورًا إذ تغشاه ظلمة الهوى وتعلوه غشاوة الكِبر فيصير على صاحبه وبالًا واحتجابًا.

فالتقوى في حقيقتها ليست مجرّد كفٍّ عن المحظور بل هي صفاء الباطن عن كدَر الرّياء وتنزّه السريرة عن دَنَس الأغراض وانطواء النية على قصدٍ واحدٍ هو وجه الحق سبحانه؛ فهي الشرط الأول في ميدان التلقي والمفتاح الذي يفتح مغاليق

الفهم والسراج الذي يكشف عن غياهب النصوص ومن لم يضع هذا الأساس كان كالذي يبني صرحًا على الرمل فلا يلبث أن تطيح به زوابع الشبهات.

ولقد جُعل العلم في الشرع ميراث الأنبياء لا ميراث المتفلسفة المدّعين فمن رام هذا الميراث بغير تقوى فقد رام المحال وأخطأ الطريق إذ كيف يطلب أنوار النبوة من غير أن يتطهّر بماء التقوى الذي به تطهّرت قلوب المصطفين؟ إن العلم إنما هو نور والنور لا يستقرّ في قلبٍ مُظلم ولا يثبت في صدرٍ معكّر بالهوى.

ثم إن المتأمِّل يجد أن التقوى تسبق العلم زمانًا ومقامًا فمن اتقى فتح الله له أبواب العلم من حيث لا يحتسب كما قال جل شأنه" *واتقوا الله ويعلّمكم الله* " فجعل التعليم الإلهي ثمرة للتقوى وجعل التقوى شرطًا سابقًا على نيل الفهم وهذه رتبة عجيبة إذ جعلت السلوك القلبي أصلًا وجعلت التبحّر العلمي فرعًا فمن قلَب الأمر وابتغى أن يكون العلم أصلًا والتقوى تبعًا وقع في قلبه العُجب والاغترار فأحاطت به ظلمات الجهل وإن حسب نفسه عالِمًا.

وكما أن الماء أصل حياة الأبدان فكذلك التقوى أصل حياة المعارف ومتى انقطع عنها مدد التقوى جفّت وصارت علومًا ميتة تُحفظ ألفاظها ولا تُثمر أنوارها وما أكثر ما ترى من رجلٍ يملأ الأسماع بدقائقه ومسائله فإذا نظرت إلى قلبه وجدته خلاءً من الإخلاص فكان كالمصباح الذي انطفأ زيته فبقيت فُتيلته دخانًا.

فيا طالب العلم إن شئت أن تظفر بلبابه وتبلغ ذُراه فابدأ بتأسيس التقوى في باطنك فبها تُصفَّى مرآة الفهم ويُجعل قلبك محلاًّ للوحي وموطنًا للفيوضات واحذر أن تطلب العلم لغير الله فإنك إن فعلت لم يزدك العلم إلا بعدًا ولم يورثك إلا تكبّرًا وكان عليك حجّة لا لك.

إنّ التقوى لبُّ القلوب وقطب رحى السلوك ومِعراج العقول إلى سماء الفهوم بها يُستنزل مدد العلم من خزائن الغيب وبها يُصان الفكر من الانحراف والزلل إذ هي الأصل الجامع والركن المنيع والوتد الذي عليه تُشدُّ خيام العلوم وما العلم إلا نور والنور لا يسكن إلا في قلبٍ قد طهّره الخشية وزكّاه الورع ونقّاه الإخلاص وألبسه حلّة الإنابة.

إنّ طالب العلم إذا دخل وادي الطلب بغير زاد التقوى تاه في متاهات الأهواء وتخبّطته أمواج الشبهات وصار كمن يكدّ في جمع القشّ ليشعل به نارًا فلا يزيده إلا دخانًا يعميه عن سواء السبيل أما إذا تسلّح بسلاح التقوى فقد تسوّرت نفسه حصون العصمة وأشرقت سريرته بأنوار الحكمة وارتقى من حضيض التقليد إلى أوج التحقيق التقوى إذن ليست زينة عرضية ولا خُلُقًا ثانويًا يُستحسن بل هي الشرط الأول في منهج الطلب والأساس الذي عليه يُبنى صرح المعرفة فمن رام العلم بغير تقوى فقد رام مستحيلاً إذ كيف يبتغي الصعود إلى معارج النور من غير أن يغتسل في مطهرة الورع؟ وكيف يُرجى له أن يَغرف من بحر النبوة وهو لم يُطهّر آنيته من أدران الشهوة؟

إن العلم الموهوب لا يُنال بذكاء مجرّد ولا بفطنة عارية بل يُنال بتزكيةٍ باطنة وصيانةٍ باطنة وظاهرة وهذا سرٌّ قلّ من يفطن إليه فإنّ كثيرًا من الناس يتوهّمون أن كثرة الحفظ أو دقة النظر تكفي لبلوغ مراتب العلماء فيغيب عنهم أن شرط التوفيق هو تقوى الله وإلا فما أكثر من جمع المتون وحفظ الفنون ولم يرزق نور الفهم!

ثم اعلم أنّ التقوى هي المِرآة التي بها ينعكس ضياء العلم على صفحة القلب فإن كانت المرآة صافية صقيلة رأى صاحبها الحقائق كما هي وإن كانت كدِرة

ملوّثة لم تزدها أنوار الوحي إلا غشاوة ولذا قال السلف: "ما أُوتي عبدٌ علماً إلا على قدر ورعه" فجمعوا بين الفقه والورع والعلم والتقوى حتى لا يُظنّ أن أحدهما يقوم بغير الآخر.

ألا ترى أنّ العلم بغير تقوى كالسيف في يد سفيه أو كالضياء في عينٍ عمياء؟ يورث صاحبه عجبًا ورياءً ويكون وبالًا عليه يوم يُعرض الناس على ربهم، وأما العلم المقترن بالتقوى فهو كالغيث إذا أصاب أرضًا طيبة أنبتت نباتًا حسنًا وأثمرت ثمرًا يانعًا فانتفع به صاحبه وانتفع به الناس.

ومن دقائق هذا الباب أنّ التقوى ليست مجرد اجتناب ظاهر للمحرمات بل هي تصفية النية من شوائب الأغراض وتوجيه القلب إلى وجه الحق وحده حتى لا يبقى في السريرة متعلّق إلا به سبحانه فإذا تجرّد القلب من علائق الدنيا استوى فيه العلم على سوقه وأثمر ثمراً طيباً أما إذا بقيت فيه رواسب الهوى فإن العلم يصير وبالاً إذ يغدو آلةً للتكاثر والتفاخر لا وسيلةً للزلفى والقربى.

فيا طالب العلم إيّاك أن تظن أنّ العلم غايةً يُبتغى بذاته بل هو وسيلة إلى معرفة الله وخشيته والخشية لا تتحقق إلا بالتقوى فإذا طلبت العلم بغير خشية فقد نقضت أساسه وأفسدت بنيانه فابدأ بتقوى الله في السر والعلانية تكن أهلاً لأن يفتح الله لك أبواب الفهم ويُسقيك من معين الحكمة ويُلبسك حُلة المعرفة ويجعلك من ورثة الأنبياء حقًّا لا دعوى.

الفصل الخامس: أثر التقوى في مراتب طلاب العلم

اعلم أنّ التّقوى جذرُ الشجرة التي منها يُستمدّ غذاء العلم وأنّ القلب إذا لم يُطَهَّر من دَرن المخالفة لم يُشرق فيه مصباحُ المعرفة فالتّقوى هي النور الذي يُبدّد

ظلمات الأفهام وهي العُروة التي يُمسك بها طالب العلم لئلّا تَخطفه غوائل الشّبهات وهي السِّقاء الذي يُحيي أرض العقل إذا أجدبتها كثرةُ الجدل والمراء.

فطالب العلم إذا حُلي بالتقوى صار كالسيف صُقِل حدُّه، ينفذ إلى معاني الحقائق نفوذ الشعاع في الزجاج الصافي أمّا إذا أضاعها صار كالسيف الصدئ يكثر صريره عند الضرب ولا يُصيب مقتلاً وإنّك لترى الرجل يحفظ متوناً ويُكثر من الشروح والحواشي ثمّ إذا امتحنته بمزالق الهوى وجدته عُرياناً لا درع له فذاك لأنّ العلم إذا لم يُزكَّ بالتقوى كان وبالاً على صاحبه يجرّه إلى الكِبر كما يجرّ الغريق أثقال الحديد ثمّ اعلم أنّ مراتب طلاب العلم إنّما تُوزن بميزان التّقوى لا بميزان الكثرة في الرواية فمنهم من حَصَّل القليل مع تقوى ففاق من جمع الكثير مع غفلة، فإنّ التقوى تُلحق صاحبها بمراتب الأولياء وإن قصُرت به الحصيلة والهوى يُسقِط صاحبَه إلى دركات الغافلين وإن حفِظ من المتون ما لا يُحصى.

التقوى روحُ العلم بل هي الخيط الخفيّ الذي تنتظم به لآلئُه فإذا انقطع ذلك الخيط تفرّقت الجواهر وتبدّدت وصار الطالب كمن يجمع حَصَىً لا نظام له وما أكثر من رأيتَهم يُدمنون المطالعة فإذا سألتهم عن لبّ المعنى لم تُبصر إلا قشوراً؛ لأنّ قلوبهم لم تُزكَّ بالطهارة ولم يَخلُصوا من رَيب الهوى.

وطالب العلم إذا لبس جُبّة التقوى هابه الشيطان كما يهاب الطفلُ الظلامَ إذا أوقد فيه المصباح فالتقوى حارس للعلم من أن يُبتذل وهي حجاب يحول بين صاحبه وبين الضلال فإذا غابت التقوى صار علم المرء مائدةً يتخاطفها أهل الدنيا يُتَّخذ للتكسّب والجدال لا للهداية والعمل.

ومن عظيم أثرها أنّها تُصعّد صاحبها في المراتب حتى يُشرف من علٍ على من دونه فيرى منازل السالكين ويعرف لكلّ مرتبةٍ قدرها فالذي معه تقوى يرى بعين

البصيرة والذي حُرِمَها إنّما ينظر بعين البصر والبصيرة ميزان العلماء أمّا البصر فميزان العوام.

ثمّ إنّ التقوى تُثمر للطالب حالاً من التواضع يورثه قبول الحقّ ممّن دونه فلا يأنف أن يتعلّم من صبيّ أو أعرابيٍّ أو امرأة لأنّه لا يرى في العلم إلا وجه الله ولا يلتفت إلى مراتب الخلق ومن ثَمَّ كان أعظم العلماء أخشعهم وأتقاهم أشدّهم انكساراً.

ولولا التقوى لكان العلم أداةَ مَكرٍ وخديعة يُسوّغ بها أصحاب الأهواء باطلهم ويحتجّ بها الظلمة على ظلمهم ولكنّ التّقوى تُحوّل العلم إلى سراجٍ يُضيء الدرب وتُصفيه من كدر الاستعلاء وتجعله حاملاً على العمل لا على التزيين.

فالمرتبة الأولى من مراتب طلاب العلم: من طلبه ليُصلح به نفسه وهذا لا يكون إلا بالتقوى فهي مِفتاح الباب والثانية: من طلبه ليُصلح به غيره وهذا لا يُثمر إلا إذا بذر فيه بذور التقوى وإلا كان وبالاً والثالثة: من طلبه لله ولله وحده فيكون علمه ميراث الأنبياء ويصير بين الناس هادياً مهدياً ولا يبلغ تلك الذروة إلا من صقل قلبه بصقالة الخوف وأدمن على رياضة النفس بماء المراقبة فالتقوى إذن ليست حليةً تُضاف إلى العلم بل هي مادته وأساسه وهي كالجذر للشجرة إذا قُطع الجذر سقطت الأغصان وتهاوت الأوراق وإن طال بقاء ظاهرها زمناً.

الخلاصة :طالب العلم بلا تقوى جسد بلا روح ونفس بلا حياة وكتاب بلا معنى وأمّا إذا اقترنت التقوى بالعلم صعدت به إلى مراتب الصدّيقين وبلغ به إلى منازل الخاشعين وجعلت له لساناً يُبارك وعلماً يُثمر وذكراً لا ينقطع.

واذا لبس المتعلم لباس التقوى سلم في كل حال:

- فالمبتدئ إذا زُوّد بالتقوى سَلِم من العجب.

- والمتوسط إذا تحلّى بالتقوى سَلِم من الجدل العقيم.
- والمتقدّم إذا لبس ثوب التقوى سَلِم من الكبر.
- والعالم الرباني إذا ازداد تقوى ازداد نورًا وحكمة.

الفصل السادس: نماذج من السلف

اعلم يا طالب البصيرة أنّ العلم بلا تقوى جسدٌ بلا روح وأنّ التقوى بلا علم نورٌ لا يُستثمر وأنّ الكمال لا يُدرك إلا باتحاد العلم والعمل في القلب كما تتحدّ الشمس بالنور فيظهر ضياءها على كلِّ أرجاء الأرض وقد أضاء السلف أعلاماً وجمعوا بين العلم والتقوى فصاروا كالشهب في السماء لا يبلُغها إلا من ارتقى بتواضع وورع.

من ذلك الفقيه الزاهد الذي طالما ملأ صدره بالعلم وفرّغ قلبه من الأماني فكان إذا حفظت شفاه الناس ألفاظه صمت قلبه عن كلّ ما يلهيه عن ربّه وكان كتابه في يده وكتاب الله في قلبه فإذا نطق بالحق نطق بأمانة وإذا اجتهد في الفتوى لم يكن لها مدخل الرياء بل كانت مرشداً للحق ونبراساً للغافلين ومنهم من جمع بين حفظ الأحاديث وفهمها تأويلاً وبين الزهد في الدنيا وتركها فلا يلتفت إلى مال ولا جاه وكان إذا جلس في مجلس العلم استوى كالذي يرى الحق أمامه وإذا وقف على منبر التوحيد ارتفع صوته بالعلم وهبط قلبه بالتقوى حتى رأى الناس فيه نموذج المؤمن الكامل.

ومنهم من صحب العلماء ورحل معهم في طرق العلم وعاش بينهم على التواضع والورع لا يفرّق بين غني وفقير ولا بين جاهل وعالم بل كانت نفسه مرآةً صافية ينعكس فيها كلّ نور الحق وعينه شاخصة إلى الخالق ولسانه لا ينطق إلا بما يرضي الله.

وقد كان السلف يرون أنّ العلم تاجٌ لا يكتمل إلا بالتقوى وأنّ التقوى حارسٌ لا يترك للهوى مدخلاً إلى القلب فإذا اجتمعتا صار الإنسان علماً سارّاً ونوراً ساطعاً يقتدي به الطالب ويقتفى أثره السالك فمن عاش علمه بدون تقوى كان كالذي يحمل سيفاً بلا حدّ ومن عاش تقواه بدون علم كان كالذي ينير طريقه بمصباح بلا زيت لا يضيء إلا لنفسه.

والمتأمل في سير هؤلاء يجد أنّ جمع العلم بالتقوى لا يكون إلا بالورع ولا الورع إلا بمجاهدة النفس ولا مجاهدة النفس إلا بمراقبة الله فإذا اجتمعت المراقبة مع الاجتهاد صار القلب على صراط مستقيم والعقل نافذ البصيرة واللسان صادق النطق والجوارح ملتزمة بالعمل.

فالطالب الحقّ حين ينهل من سير هؤلاء يعلم أنّ سرّ الكمال في العلم مع التقوى وأنّ المرء لا يُعرف بعلمه وحده ولا بتقواه وحدها بل بالاتحاد بينهما وبالخشية التي تضيء قلبه في كل مجلس وبالعمل الذي يُصدّق قوله قبل فعله.

فليكن سلفك القدوة ولتكن سيرتهم المصابيح ولتعلم أنّ العلم والتقوى جناحا النفس إلى الآفاق العليا ومن جمع بينهما حاز من الدنيا والآخرة ما لا يُدرك بالجاه أو الغنى أو كثرة الحفظ ومن هؤلاء العلماء:

- الإمام مالك :كان يقول لأهله :*العلم إنما هو نور يجعله الله في القلب وليس بكثرة الرواية* وهذا النور لا يكون إلا مع التقوى.
- الإمام الشافعي :لما شكا إلى وكيع سوء حفظه قال له :*دع المعاصي فإن العلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصٍ.*

- الإمام أحمد :كان يرى أن أعظم ما يميّز طالب العلم هو الورع فكان يقول : *أصل العلم خشية الله.*
- الإمام أبو حنيفة النعمان: جمع بين الغنى المشروع والزهد الحقيقي في آنٍ واحد ولم يكن زاهدًا بمعنى الفقر والتقشّف المادي بل كان غنيًّا واسعَ التجارة ومع ذلك شديد الورع متعففًا عن أموال السلاطين زاهدًا في المناصب الدنيوية.

الفصل السابع: طلاب العلم بين الغرور والتواضع

تهافت غرور المتعلّمين وافتتان الأذهان بما عندها من الظنون.

فإنّ الناظر في أحوال ذوي الأقلام وأرباب الدفاتر ليرى عجباً من تكاثر الدعوى في أسواق الفكر حتى صار كلُّ متلقّفٍ من أطراف العلوم يزعم أنّه حلّ عقد الأسرار وبلغ مبلغ الحكماء الأبرار وما هو إلا كراكبٍ في لجّة البحر لا يحسن السباحة فيغترّ بما تحت قدميه من قشور الأمواج ويحسبها قاع المحيط.

وإنما حملهم على ذلك آفةٌ قديمة في طبع البشر وهي أن العقل إذا ظفر بمعلومة ظنّ أنّه أحاط بالكلّ وإذا لمس طرف الحقيقة توهّم أنّه قبض على لبّها فغلب عليهم الزهو بما جمعوا من الأوراق حتى خُيّل إلى بعضهم أنّ مفاتيح المعارف معلّقة في عنقه وأنّ كلّ مخالفٍ له في الرأي دائرٌ في فلك الضلال فأيّ غرورٍ أعظم من أن يتوهّم الإنسان أنّ المجهول قد صار معدوماً لأنّه لم يبلغ إليه؟ وأيُّ جهلٍ أشدّ من أن يُساوي المعلوم الجزئي بمطلق الكلّي ثم يتباهى به على الأقران؟

وقد رأينا أقواماً لم يتجاوز نظرهم حدود ما سُطّر في مصنّف ولم يغادروا أقبية التعليم إلى فضاء التفكّر فإذا هم ينفخون من أحشاء الجهل ريح الكبر ويتشدّقون بألفاظٍ مأخوذة من بطون الأسفار لا يفقهون مقاصدها ولا يستقرّ في قلوبهم معناها

تراهم يُحصون التعريفات إحصاءً ويعدّون الأقوال عدّاً ثم يتفاخرون بما جمعوا كأنّ العظمة في الكمّ لا في الكيف وكأنّ العلم يُوزن بمداد المحابر لا بنفاذ البصيرة.

وههنا يلتبس على طلاب العلم الحقّ بالباطل؛ فإنّ من طبيعة الذهن أن يأنس بما حواه وينفر ممّا جهله فيقع في شرك الظنّ أنّ دائرة إدراكه هي حدّ الحقيقة ولو أنهم تدبّروا لعلموا أنّ كلّ معلومٍ محاطٌ بمجهول وأنّ كلّ قاعدة تُبنى على مقدّمات غير مبرهنة في أصلها وأنّ اليقين الذي يتبجّحون به ليس إلا إيقاناً نسبياً يتغيّر بتغيّر الدليل ولكن الغرور يحجب العقل عن التفكّر في نفسه ويُنسيه أنّه آلةٌ محدودة لا يُدرك من الحقائق إلا على قدر طاقته.

ومن أعجب أحوال هؤلاء أنّ أحدهم إذا عرف مسألة في الحساب أو عبارة في المنطق أو قاعدة في النحو ظنّ أنّه قد ارتقى إلى مصافّ الحكماء وصار فيلسوف زمانه ثم أخذ يُحاجج ويُعاند من هو أعلم منه وأرسخ قدماً كأنّ الغاية من العلم المغالبة والمراء لا إصابة الحقّ ولو أنّ العلم يُورث الفضل بالادّعاء لا بالتحقيق لكان كلّ قارئٍ لمخطوطٍ عتيق أرسخ قدماً من أفلاطون ولكان كلّ حافظٍ لتعريفات الأصول أعلم من واضعيها!

إنّ الغرور بالعلم أخطر من الجهل المحض لأنّ الجاهل قد يعترف بجهله فيتعلّم أمّا المغترّ فقد سدّ على نفسه باب الاستزادة؛ إذ ظنّ أنّه بلغ الغاية وهذا الضرب هو الذي يقف عند حدود ما سمعه من أستاذه فيحمله على غير وجهه ثم يعادي من سواه ويحسب أنّ الخلاف نقصٌ في الخصم لا قصورٌ في الفهم وهكذا تصير المدارس والمنتديات ساحات تباهٍ بالألفاظ لا ميادين تحقيقٍ في المعاني ويضيع العلم بين مُدَّعٍ ومُكابر.

وإنما نقول هذا تنبيهاً على أنّ العلم في جوهره وسيلة لا غاية وأنّ المطلوب به إدراك وجه الحقّ في المسائل لا تعظيم الذوات فمن جعل العلم سلّماً لسمعته فقد هدم مقصده من حيث أراد البناء ومن جعله مرآةً ليمدح فيها نفسه لم يرَ من صور الحقيقة إلا ما وافق هواه ولو كان العلم شرفاً بالذات لكان أشدّ الناس علماً بأجزائه الطبيعية أزهدهم في التفاخر بها ولكننا نجد في التاريخ أنّ كبار الفلاسفة أكثر تواضعاً من صغار المقلّدين وأعمقهم بحثاً أبعدهم عن ادّعاء العصمة فيا من تطلب العلم اعرف قدر نفسك وميّز بين ما تعلم وما تجهل ولا تُخدع بزينة الألفاظ عن غور المعاني فكم من لسانٍ فصيحٍ وقلبٍ سقيم وكم من متكلّمٍ عليمٍ وحدّهُ عقله عند سطحياتٍ لا تتجاوز ظاهر العبارة واعلم أنّ الغرور بالعلم حجابٌ عن تمام العلم وأنّ كلّ مسألة تنفتح لك تُلقي في ذهنك مسائل أخرى لم تُجب عنها بعد فدوام التساؤل هو علامة العاقل وأما الادّعاء والاكتفاء فهما أمارة الغافل.

يا سائلاً عن مزلَّة الأقدام في مدارج الطلب ومثار الفتن في مظانِّ العلم والأدب اعلم أنّ الغرور إذا تسلّل إلى باطن المتعالم صار كالداء العضال الذي لا ينجع فيه دواء وكالسُّم القاتل الذي يسرى في العروق حتى يطغى على سويداء القلب فإنّ الطالب إذا استكثر من المحفوظ ولم يتهذّب بالمعقول وتزيّا بزيّ العلماء ولم يتجرّد من دعوى الاستعلاء التبس عليه الخيط الأبيض بالخيط الأسود وظنّ أنّ صرير قلمه أرفع من خرير الحكمة وأنّ جلبة صوته أعلى من هيبة الصمت.

فهو يتيه تيه المغرور بما لا يملك ويتقعّر في لفظه تقعر من حسب الهذر حكمة ويستطيل على أقرانه استطالة من جعل الجهل سُلَّماً لادعاء الفهم حتى إذا قُورِن بذي رسوخ بان عواره وانكشف مستوره كالسيف المفلول يلمع في الغمد فإذا سلّته المعركة تبين خواؤه.

ولقد رأيتُ أنّ الغرور في طالب العلم أشد خطراً من الجهل في العامي؛ إذ الجاهل يقرّ بجهله فيسهل علاجه وأما المغرور فيتوهم العلم فيستعصي دواؤه فلا يزداد مع الأيام إلا عتوًّا ولا ينفكّ عن دعوى إلا اتّبعها بأخرى حتى يصير حديثه سحابةً مظلمة لا مطر فيها وصيحته قعقعة جوفاء لا ثمرة وراءها.

وما أضرّ بالعلم من طالب يستكثر بالجدل على الحجة ويستمسك بالهوى على الدليل فإذا سمع قولاً أحكم منه نفر وإذا بُيّن له خطؤه كابر وإذا نصحه المخلص صدّ عنه إذ لا يرى في مرآته إلا نفسه ولا يلمح في صحيفة عقله إلا رسمه فهو عند الجاهل متكبّر وعند العالم مستنكف وعند نفسه أوحد زمانه يظنّ أنّ القرائح ما ولدت إلا له ولا نطقت الألسنة إلا بإذن منه.

وهذا الصنف هو البلاء الذي يفتك بالمجالس فإنّه يرفع عقيرته إذا صمت غيره ويقاطع إذا تكلم الحكيم ويستأثر بالكلام إذا اجتمع الناس ثم لا يُفضي قوله إلا إلى جدب العقول وإملال السامعين فإذا خرج من المحفل خرج الناس مثقلين بثرثرته متبرّمين بسفسطته لا يذكرون علمه بل يذكرون تكبّره ولا يحمدون فهمه بل يعيبون غروره.

أفما علم أنّ العلم ميدان رحب لا يبلغ غايته أحد؟ وأنّ العقل وإن سما لا يدرك كل مدركاته؟ وأنّ ما فاته أكثر مما ناله؟ ولكنه غلبت عليه نشوة الدعوى فأعمته وأسرته لذّة الظهور فأذهلته فصار أسيراً للوهم عبداً للرياء يظنّ نفسه سيداً وهو أذلّ من عبد ويحسبه الناس فاهماً وهو أجوف من قصب.

فالغرور جائحة العلم وآفة الطالب ومعرة المجلس ومفسدة القلوب وهو لعمري حجابٌ بين العبد والحق وحائل بينه وبين رُشد الصواب وما زال الأوائل يحذّرون

منه ويصفونه بأنّه أول ما يفسد العقل إذا استبدّ وآخر ما يخرج من نفس المتعالم إذا استقرت فيه العادة.

من أخطر ما يواجه طالب العلم أن يغتر بما حصل من المعارف فيحسب نفسه قد بلغ الغاية والغُرور بالعلم يُميت القلب ويجعله آلة للجدل لا وسيلة للهداية أما التواضع فهو تاج طلاب العلم؛ إذ يعلمون أن فوق كل ذي علم عليم إنّ أخوف ما يُخاف على ابن آدم أن يُقبض قلبه على جهلٍ بربّه وأن يُوارى في ثرى الأرض وقد حُجب عن معرفة مالك أمره فما الجهل بالدين إلا عَمىً يتلبّس البصائر ورانٌ يطبع على القلوب وظلمةٌ إذا استحكمت لم ينفذ إليها شعاع ولم تنقدح فيها بارقة ألا ترى أنّ الدين إنما هو نورٌ يهدي إلى سواء السبيل؟ فإذا حُرم العبد هذا النور تردّى في متاهات العمى وصار كالسائر في لجّة بحرٍ بغير سفينة ولا قبطان يقوده ولا نجمٍ يهديه فالجاهل بدين الله وإن استكثر من متاع الدنيا فإنّه في الحقيقة أفقر الخلق إذ الغنى غنى الروح وما من روحٍ بلا معرفة إلا وهي خرابٌ مظلم كالوادي الأجرد لا شجر فيه ولا ماء.

وما الجهل إلا سجنُ النفس في ضيق الحسّ ومنعها من التحليق في فضاء العقل والشرع فيغدو صاحبه أسيرَ أوهامٍ فاسدة يزن الأمور بميزانٍ منكوس فيقدّم الناقص على التام ويؤثر الفاني على الباقي اعلم أنّ الجهل ليس هو عدم العلم فحسب بل هو قيام صورةٍ مشوَّهةٍ في الذهن تُزَيَّن لصاحبها حتى يظنها حقّاً وهي باطل ويحسبها هدىً وهي ضلال ولذلك كان الجاهل في ظلمةٍ مركّبة: فهو لا يدري ولا يدري أنّه لا يدري فيركب متن الغرور ويجعل من وهمه علماً ومن سفهه حلماً.

وويلٌ ثم ويلٌ لمن غفل عن دين الله! فإنّ الجهل بالدين يُعمي عن سرّ الوجود ويجعل صاحبه كالميت وإن مشى على الأرض لا يعرف من خلقه ولا يدرك عاقبته

يظن أنّ الحياة أكلٌ وشربٌ ولهو ثم يُفاجَأ بالموت وقد حُمل على الأعناق فإذا سُئل :*من ربك؟* خرس لسانه وضاع جوابه إذ لم يعرف ربه إلا اسماً على شفاه الناس ولم يفقه معناه في قلبه.

إنّ الجاهل بالدين لا يزن أفعاله بميزان الشرع فيتخبّط في الظلم كما تتخبّط الدابة في الليل البهيم يظن الكذب حيلةً والغش فطنةً والظلم قوّةً والباطل غلبةً حتى إذا انكشفت الأستار علم أنّه كان يخدع نفسه ويُقيم بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ.

ومن أخطر أنواع الجهل :الجهل المركب إذ يرى الجاهل نفسه عالماً ويزعم أنّه قد أدرك الغاية فيُغلق باب السؤال ويستنكف عن طلب الحقّ فيزداد بعداً على بعد وضلالاً على ضلال وهذا كالذي يسلك طريقاً موهوماً إلى غير مقصد فإذا قيل له: قد أخطأت السبيل أبى واستكبر حتى يهلك عطشاً في مفاوز التيه.

وقد كان السلف يعدّون الجهل أشدّ بلاءً من الفقر والمرض؛ لأنّ الفقر والمرض يورثان صبراً واحتساباً أما الجهل فيورث كبراً وعمى فلا يُقبل لصاحبه عمل ولا يُرتجى له فلاح وكانوا يقولون: "الجهل موت الأحياء وعمى الأبصار والبصائر سواء"

فيا من غُرَّ بالدنيا وزخرفها لا يكن حظّك من حياتك لهواً وغفلةً ثم تلقى الله وأنت في سواد الجهل اطلب العلم فإنّه روح القلب ونور العقل وسُلَّم النجاة فإنّ من مات جاهلاً بدينه مات كافراً بنعمة الله في عقله وروحه وصار عبرةً للأمم بعده.

واعلم أنّ الجهل بالدين هو الهاوية والعلم بالله هو الجنّة قبل الجنّة فمن أراد النجاة فليخلع عن قلبه رِقَّ الغفلة وليتزوّد من معين الشرع وليعلم أنّ الله سائله : "ألم أبعث إليك رسولاً وأنزلت عليك كتاباً وجعلت لك عقلاً يفقه؟ فكيف جهلت أمري وأعرضت عن ذكري؟"

الفصل الثامن: العلم وسيلة للزهد في الدنيا

الحمد لله الذي جعل العلمَ سُلَّمًا إلى مقامات العارفين وجعل الزهدَ ثمرةً للمتبصرين وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ما ترك من الخير إلا دلّ عليه ولا من الشر إلا حذّر منه العلم الحق يقرّب من الزهد لأنه يكشف حقيقة الدنيا وفنائها فالعارف بالله لا تغرّه زخارف الدنيا بل يزهد فيها طلبًا للآخرة ومن هنا كان العلماء الربانيون أزهد الناس لأنهم أبصروا بزوال الدنيا وأيقنوا أن البقاء لله وحده.

فإنّ العلم جوهرٌ نورانيّ إذا أشرق على القلب أعتقه من إسار المادة ونقله من حضيض الدنيا إلى أفق العلوّ؛ إذ هو وسيلة لا غاية وطريق لا نهاية وسراج يهدي السالكين إلى مقام الانسلاخ من زخارف الأرض والتعلّق بأذيال السماء وما الزهد إلا ثمرة اليقين وما اليقين إلا مولود العلم وما العلم إلا ميراث النبوة فكان العلم والدًا للزهد كما تكون الشمس مولِّدة للنهار.

إنّ طالب الدنيا بالدنيا عبدٌ لها وطالب الدنيا بالعلم أخسرُ منه صفقةً وأضلّ منه سعيًا إذ حوّل الوسيلة غاية وبدّل النور دخانًا واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير أما من نظر إلى الدنيا بعين العلم فقد رآها دار ممرٍّ لا مقرّ ومزرعةً لا مستقرّ ورأى زخارفها حُطامًا وزينتها سرابًا فأعرض عنها بلسان حاله وقال" :إنما الدنيا ظلٌّ زائل وسحابٌ عابر ونهرٌ جارٍ إلى بحر الفناء."

العلم في حقيقته يكشف الحُجب عن بصائر العباد فإذا استقرّ في القلب الصافي أورث صاحبه زهداً في عاجل الغرور ألا ترى أن من علم حقيقة الموت لم يأنس بطول الأمل ومن علم تقلب الأحوال لم يركن إلى ظلّ زائل ومن علم حقيقة

الحساب لم يَغترّ بسراب الأسباب؟ فالعلم إذن يُري الدنيا على حقيقتها :قشرةً بلا لُب وسوقاً بلا ثبات وطريقاً محفوفاً بالابتلاءات.

ولقد قال بعض الحكماء: "من لم يُثمر علمُه زهداً فليس بعلمٍ بل هو وبال" وكيف يكون علماً من لم يُزحزح صاحبه عن دار الغرور ولم يقرّبه من دار السرور؟ إنما هو رسمٌ بلا روح وصورة بلا حقيقة كالمصباح الخالي من الزيت أو كالسحاب الذي لا ماء فيه.

ثم اعلم أنّ الزهد ليس خلوَّ اليد من الدنيا وإنما خلوّ القلب منها والعلم هو الذي يُحرّر القلب من رقِّها فإن الجاهل قد يترك الدنيا عجزًا لا زهداً ويهجرها فاقةً لا ورعًا أما العالم فهو الذي يزهد فيها مع قدرته عليها ويُعرض عنها مع تمكنه منها لأنه علم أنها متاع الغرور.

وإذا تأملت أحوال السلف وجدت أنّ أعلام الزهاد هم أعلام العلماء: فهذا الحسن البصري كان بحراً في العلم لكنه جعل علمه مطيّة للزهد حتى صار لسانه لا ينفكّ يقول: "الدنيا دار بلاء لا دار نعيم وممرّ لا مقرّ" وهذا الشافعي جمع بين الفقه الدقيق والزهد العميق فقال: "من طلب الدنيا بالعلم فقد خسر ومن طلب الآخرة بالعلم فقد ظفر" فالعلم إذا لم يُثمر زهداً صار حجابًا وإذا أثمر زهداً صار نورًا وشتان بين من جعل علمه سُلَّماً يرتقي به إلى مقامات العارفين ومن جعله سبيلاً إلى تكاثر الدنيا وزخارفها.

ألا فاعلم يا طالب العلم أن العلم كالمفتاح والزهد كالكنز فمن استعمل المفتاح لغير الكنز فقد ضلّ السبيل ومن ضيّع المفتاح فلن يصل إلى الكنز أصلاً فخذ العلم على أنه وسيلة إلى معرفة الحق والزهد فيما سواه تكن من الفائزين.

واعلم أن أعظم الزهد ما كان ثمرةً للعلم بالله فإن من عرف عظمة مولاه صغرت في عينه الدنيا بما فيها ومن عرف حقيقة الآخرة رأى أن ما عند الله خير وأبقى فآثر الباقي على الفاني والمُقيم على الزائل والغنى الحق على فقر الوهم.

الفصل التاسع: طالب العلم في عصرنا

يا سائلاً عن أوّل مراتب التكوين اعلم أنّ الإنسان حين يخرج من رحم أمه إنّما يخرج على فطرةٍ بيضاء صفحةٍ نقية لو كُتبت فيها كلمات التوحيد لانطبعت ولو أُفرغت فيها شوائب الباطل لامتلأت فالنفس في أصلها كالماء العذب قابلٌ أن يُصبّ في قدحٍ من ذهب فيكون شريفاً أو يُصبّ في وِعاءٍ من خزف فيبقى ماءً غير أنّ الوعاء يُغيّر مذاقه وما الفطرة إلا استعدادٌ خام تهيئة لقبول ما يُلقى فيها فهي لا تُنتج بنفسها بل تنتظر الغارس الذي يودع فيها البذور فإن جاءها والدٌ بصير أو مربٍّ حكيم نثر في جنباتها بذور العقيدة وسقاها بالذكر وحرسها من أعاصير الشبهات فإذا بها تنبت نباتاً حسناً وإن تُركت لهمل العادات ومرعى الغفلات أُصيبت بعفن الهوى واستحالت مرعىً للباطل فيشبّ الفتى كأنّما جُبل على الضلال مع أنّه في الحقيقة أُهمل في زمان الغرس.

اعلم أنّ الصغر أشبه ما يكون بالطين الرخو؛ يقبل كل نقش ويُمسك كل أثر فإذا جفّ استحال صعباً لا يُغيَّر إلا بالكسر وكذلك قلب الطفل فهو في مطلع العمر أسرع قبولاً لما يُبثّ فيه فما يراه في أبيه وأمه من صلواتٍ وذكرٍ يظلُّ ماثلاً في ذهنه وما يُلقَى على سمعه من أسماء الله وأخبار الأنبياء يغدو ركائز لعقله إذا شبّ.

أما إذا تربّى في حجور الغافلين وتفتّحت عيناه على أهوال اللهو فإنّ الصور التي تُنقش في قلبه أولاً تظلّ تُطارده في كهولته فترى الرجل يشيخ ولا يزال في داخله صدى أغنيةٍ سمعها طفلاً أو صورة باطلةٍ شبّ عليها وإن حاول محوها لم يستطع

فكيف بالعقيدة إن لم تُلق في الصغر؟! إنّها في الكبر لا تأتي إلا جدلاً وأمّا في الطفولة فهي ذوقٌ وملكة.

وقد قال أهل البصيرة :*من شبّ على شيء شاب عليه ومن شاب على شيء مات عليه ومن مات على شيء بُعث عليه* فالحذر الحذر من أن يُترك الصغير للغفلة ساعة فإنّ ساعة في الصغر تُساوي دهراً في الكبر.

اعلم أنّ الناس في زرع العقيدة أشبه بالغُرّاس فمنهم من يغرس شجراً طيباً في أرضٍ طيبة فيثمر إيماناً ومنهم من يغرس شوكاً في صحراء قاحلة فيثمر كفراً أو نفاقاً وليس الوالد مربّياً بكثرة الوصايا ولكن بحاله قبل مقاله فإنّ الولد إنما ينظر إلى أبيه كما ينظر الغرس إلى الساقي فما صبّ عليه من ماءٍ شربه فإن سقاه بماء التوحيد نمى وإن سقاه بماء الشهوات هلك.

والمعلّم قد يكون في حياة الطفل أعظم أثراً من الأب فإنّ الأب يُربّي بالجِبِلّة والمعلّم يُربّي بالمنهاج وإذا اجتمع صدق الأب وحكمة المعلّم كان الفتى بين نبعين يشرب من أحدهما ماء الفطرة ومن الآخر ماء العلم فيصفو له القلب ويثبت له الإيمان.

اعلم أنّ العقيدة إذا زُرعت في الطفولة صارت في الشباب عادة وفي الكهولة يقيناً فهي كالنبتة تُغرس أولاً بذرة ثم تصير شجيرة ثم غابة راسخة فمن تلقّاها صغيراً عاش بها ومن تلقّاها كبيراً عاش لها والفرق بين من نُشِّئ عليها ومن جادل فيها بعد الكبر كالفرق بين من وُلد في بيتٍ له سقف وأركان ومن بُني له بيت في العراء بعد أن شابت لحيته فالأول يألف البيت كأنّه جلدُه والثاني وإن دخله بقي غريباً فيه.

ولذلك ترى كثيراً من الداخلين في الدين بعد الكبر يختلج في صدورهم بقايا من الشكّ كأثر جرحٍ اندمل ولكن بقي أثره وأمّا من تربّى عليها منذ نعومة أظفاره فإنّ قلبه كالمرآة المصقولة لا يخالطها غبار.

إنّما الغاية من غرس العقيدة أن يبلغ الإنسان من اليقين مبلغاً لا تزلزله الفتن ولا تهزه العواصف فإذا دعته نفسه إلى معصية ردّها بما وُضع في قلبه من ذكر الله في صباه وإذا أظلّته الفتن استظلّ بفيء التوحيد الذي ألفه منذ نعومة أظفاره.

وويلٌ لمن أهمل زرعها في صغاره ثم طلب منهم الثبات عند كبرهم! فإنّ البذور إن لم تُلقَ في الربيع لم تُدرك في الصيف وإن فات أوان الحرث لم يُغنِ الحصاد شيئاً فالعقيدة لا تُجنى عند الموت إلا إذا زُرعت عند الولادة ولا تُحصَّل عند الشيخوخة إلا إذا غُرست عند الطفولة فليعلم المربّون أنّ الطفل وديعة الله عندهم وأنّ القلوب أوعية وأنّ ما يُبذر فيها يُحصد يوماً ما إمّا إيماناً يُنجي أو ضلالاً يُردي.

طالب العلم في هذا العصر يعيش بين إغراءات الدنيا وكثرة الملهيات وتضخم الشهادات وهو محتاج أكثر من أي وقت مضى إلى إحياء صلة العلم بالتقوى وإلى إدراك أن قيمة العلم لا تقاس بعدد الشهادات بل بقدر ما يثمره من خشية وزهد وحكمة.

مراتب طلاب العلم درجات تتفاوت بصدق النية وصفاء السريرة وقوة التقوى فالمبتدئ يترقى بالتواضع والمتوسط يترقى بالصبر والمتقدّم يترقى بالمجاهدة والعالم الرباني يبلغ الغاية بالجمع بين العلم والتقوى.

وإنّ أعظم صفة لطلاب العلم جميعًا هي خشية الله فهي ثمرة العلم وهي التي تحفظهم من الانحراف وتجعلهم هداة للأمة وبذلك يتحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ومن جمع بين هذه المراتب صار الطالب والمراد واحدًا والحافظ والمحفوظ واحدًا والعالم والمعلوم واحدًا فلا فرق بين اللسان والقلب والفعل ولا بين المعلومة والمعرفة الحية أما من وقف عند الحفظ فقط فقد حُجب عن الحقائق ومن لم يجمعبين الظاهر والباطن فقد بقي في الظلّ يرى الصورة بلا روح يسمع الصوت بلا معنى ويقرأ الحروف بلا تدبر.

فالطالب الحقّ لا يكتفي بالظاهر ولا يغفل عن الباطن بل يجمع بينهما فيرى النور في كل شيء ويكتشف السرّ في كل كتاب ويشعر بالمعنى في كل فعل ويصبح كل لحظة من حياته انعكاسًا للحق.

المرء الذي يسعى للمعرفة ليس كالذي يقطع الطريق بلا بوصلة بل كالغواص الذي يعرف عمق البحر وأين اللؤلؤ فكل طالب يمرّ بمراحل متعددة كل مرحلة منها تتطلب صبرًا وتدبّرًا وكل تجربة من تجاربه تكشف له جزءًا من الحقيقة من بدأ بالحفظ يظل على السطح يرى الأمواج ولا يغوص في الأعماق أما من جمع بين الفهم والعمل فقد أصبح كل فعل وكل كلمة نورًا في قلبه وكل لحظة قربةً إلى الحقيقة.

المراتب الأولى للطالب تشبه أولى الخطوات على الصخرة تتطلب توازنًا ووعيًا والتسرع يوقعه في الظلال كل مرحلة تزيد الطالب إدراكًا وتعلمه كيف يجمعبين الحفظ والفهم بين العقل والقلب بين الظاهر والباطن حتى يصبح كل علم يعيش فيه وكل معرفة جزءًا من كيانه وبهذا يصبح البحر الذي يسبح فيه الطالب ملئًا باللآلئ وكل موجة درسًا وكل نسمة حكمة.

التدبر في العلم كالتأمل في البحر عند الفجر ترى الأفق واضحًا وتشعر بالهدوء في أعماق نفسك الطالب الذي يكتفي بالحفظ فقط يبقى أسير السطح أما من غاص

في معاني ما قرأ فقد صار قلبه مرآة صافية يرى الحقائق كما هي ويشعر بالمعنى في كل فعل قبل أن يفعله المراتب العليا للطالب تتطلب توازنًا بين الصبر والعمل بين النظر والتجربة بين الفكر والتطبيق بحيث يصبح كل علم نورًا وكل فعل حياة وكل لحظة قربةً إلى الحق.

من يمر بهذه المراتب يجد نفسه يذوب في المطلوب فتغدو المعرفة والطالب واحدًا والحافظ والمحفوظ واحدًا والعالم والمعلوم واحدًا فلا فرق بين الفعل والمعنى ولا بين الظاهر والباطن هذه المراتب لا تُدرك بالحفظ وحده بل بالعيش في كل لحظة كدرس وبالقدرة على إدراك الحكمة في كل شيء حولك.

لكل مرحلة من مراحل الطالب معنى ولكل مرتبة سرّ المرحلة الأولى تمهيدية يختبر فيها الطالب قدرته على التمييز بين السطح والعمق بين الحروف والمعنى بين الظاهر والباطن المرحلة الثانية تتطلب إدراكًا أعمق بحيث يبدأ الطالب بدمج العلم والعمل فيرى النور في كل حرف والمعنى في كل كلمة والحكمة في كل موقف المرحلة الثالثة هي التجلي حيث يصبح العلم جزءًا من الروح والعمل انعكاسًا للمعرفة والقلب مرآة صافية تعكس الحقيقة بلا تشويه.

في هذه المراتب يصبح كل ما يقرأه الطالب نورًا وكل ما يعيشه حقيقة وكل لحظة قربةً إلى الحق من لم يجمعبين هذه المراتب بقي في الظلّ يرى الصورة بلا روح يسمع الصوت بلا معنى ويقرأ الحروف بلا تدبّر أما من عاش هذه المراتب فقد بلغ أعماق البحر وغاص في جوهر المعرفة واكتشف اللآلئ المخفية التي لا يراها إلا الغواص العارف.

المراتب العليا للطالب ليست مكافأة بل هي نتيجة رحلة طويلة من الصبر والتأمل والعمل كل تجربة وكل موقف وكل لحظة من حياته تختبر مدى صبره وفهمه

ومن جمع بين العقل والقلب والروح صار كل فعل وكل كلمة وكل لحظة انعكاسًا للحقيقة العليا فلا فرق بين الطالب والمعرفة ولا بين الحافظ والفهم ولا بين الظاهر والباطن.

في المراتب العليا يتحرر الطالب من التعلق بالسطح ويغوص في جوهر المعنى ويصبح قلبه مرآة صافية يرى الحقائق كما هي ويشعر بالمعنى قبل أن يعيشه المراتب العليا لا تُدرك إلا من جمع بين الحفظ والفهم بين العقل والقلب بين القراءة والعمل بين الظاهر والباطن.

في رحلة العلم يدرك الطالب أن المعرفة الحقيقية تبدأ من إدراك عظمة الخالق يقول الله تعالى» :*وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا* «(طه: 114) فالعلم هبة من الله ومفتاح القلوب والأرواح ومن لم يتوجه قلبه نحو الله لم يصل إلى جوهر المعنى كما قال النبي ﷺ» :*من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة* «رواه مسلم

التدبر في العلم يشبه الغوص في البحر فالسطح مجرد انعكاسات والعمق يحتوي اللآلئ ومن عاش التجربة عاش الحقيقية يقول الله تعالى» :*يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ* «(المجادلة: 11) فالعلو الحقيقي في العلم يرتبط بالإيمان والعمل الصالح.

وقد قال النبي ﷺ» :*طلب العلم فريضة على كل مسلم* «(رواه ابن ماجه) فالطالب الذي يسعى للعلم يسير في طريق النجاح الروحي والعملي أي أن الطهارة النفسية والأخلاقية شرط لفهم العلم واستيعابه.

المراتب العليا للطالب تتطلب الصبر والتأمل والانصهار في المعرفة يقول الله تعالى» :*فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ* «(البقرة: 148) فالطالب الحق يسرع في طلب الخير

والعمل به لا في مجرد الحفظ فالتفاني في طلب العلم يرتبط بالزهد في الدنيا والتعلق بالمعاني الحقيقية.

المراتب العليا لا تُدرك بالحفظ وحده بل بالدمج بين العمل والفهم يقول الله تعالى» :*وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا* «(البقرة: 83) فالعلم يجب أن يظهر في الأخلاق والعمل وليس مجرد كلمات على الورق وعن النبي ﷺ» :*خيركم من تعلم القرآن وعلمه* «(رواه البخاري) فالتعليم والتطبيق هما طريق الطالب الحق فالطالب الحق يسعى ليكون العلم طريقًا إلى الخير والمعرفة طريقًا إلى القرب من الحق الطالب الحق يدرك أن كل مرحلة من مراحل طلب العلم هي اختبار للروح والعقل يقول الله تعالى» :*وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ* «(الإسراء: 36) فالتحقق والفهم أهم من التظاهر بالحفظ ومن لم يدرك هذا المعنى يبقى كالغريق يرى الأمواج بلا عمق.

عن النبي ﷺ» :*من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين* «(رواه البخاري ومسلم) فالله يفتح على الطالب باب الفهم ولكن الصبر والعمل هما مفتاح ذلك فالمعرفة الحقيقية تولد الحكمة والحكمة تولد العمل والعمل يولد القرب من الحق في كل مرتبة يزداد الطالب وعيًا بالمعنى يقول الله تعالى» :*وَاتَّقُوا اللَّهَ و يَعْلَمُكُمُ اللَّهُ* « (البقرة: 282) فالتقوى تزيد فهمًا والفهم يولد العمل والعمل يقرب إلى الحق عن النبي ﷺ» :*إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى* «(رواه البخاري ومسلم) فالنية الصافية أساس المراتب العليا للطالب فالطالب الذي يجمع بين الإخلاص والفهم والعمل يرى النور في كل ما يحيط به وتصبح المعرفة جزءًا من كيانه وروحه.

المراتب العليا تتطلب الصبر والمثابرة يقول الله تعالى» :*الَّذِينَ صَبَرُوا وَتَوَكَّلُوا عَلَى رَبِّهِمْ* «(الأنفال: 66) فالطالب الذي يتحلى بالصبر يتجاوز الصعاب ويغوص في أعماق المعرفة عن النبي ﷺ» :*الصبر ضياء* «(رواه أحمد) ومن لم يصبر يبقى على السطح ومن صبر وواصل بلغ الأسرار.

فالطالب الحق يرى أن الصبر والعمل هما جناحا الطير الذي يحلق به نحو المعرفة العليا يرى أن كل تجربة درس وكل موقف مرآة يقول الله تعالى» :*وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا* «(الإسراء: 85) فالتواضع ضرورة في كل مرحلة من المراتب.

عن النبي ﷺ» :*تواضعوا لمن تعلمتم منهم العلم* «(رواه أحمد) فالتواضع يجمع بين المعرفة والعمل ويصل بالطالب إلى مراتب عليا الطالب الحق يجمع بين المعرفة والعمل والتقوى يقول الله تعالى» :*وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* «(الطلاق: 2) فالتقوى تفتح له أبواب الفهم والفهم يولد العمل والعمل يولد القرب.

عن النبي ﷺ» :*أفضل الناس أنفعهم للناس* «(رواه الطبراني) فالطالب الحق يطبق علمه في خدمة نفسه والآخرين في النهاية المراتب العليا للطالب تتطلب قلبًا صافيًا وروحًا خالصة وعملًا متواصلًا يقول الله تعالى» :*وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا* «(طه: 114) فالزيادة الحقيقية تأتي بالانصهار في المعرفة والعمل معًا لا بالحفظ وحده.

عن النبي ﷺ» :*طلب العلم فريضة على كل مسلم* «(رواه ابن ماجه) فالمعرفة واجبة والسعي إليها فريضة والعمل بها واجب لتحقيق القرب من الحق.

رحلة طالب العلم رحلة طويلة وعميقة تبدأ بالإرادة وتنتهي بالفهم العميق للحقائق الطالب لا يكتفي بجمع الكلمات وحفظها بل يسعى للغوص في المعنى ليعيش العلم في قلبه وروحه بحيث يصبح كل كتاب يرى فيه مرآة حقيقية وكل تجربة يمر بها درسًا تطهّر النفس وتزيدها حكمة في هذه المرحلة يتعلم الطالب أن

المعرفة لا تُقاس بعدد الصفحات التي قرأها بل بعمق الفهم الذي يصل إليه وبمدى إدراكه للحقائق التي تقود الروح نحو القرب من الحق.

حين يغوص الطالب في أعماق المعرفة يكتشف أن الصبر حجر الأساس في طلب العلم فالصبر ليس مجرد تحمّل المشقات بل هو القدرة على التعمق في المعاني والتأمل في كل تجربة وفهم سرّ كل كلمة الطالب الذي يتجاوز مرحلة الحفظ فقط ويعيش العلم بكل جوارحه يستطيع أن يحوّل كل كتاب وكل موقف وكل تجربة إلى درس عملي ووسيلة لتنمية النفس وإشراق الروح.

تدريجيًا يبدأ الطالب بتمييز الظاهر عن الباطن فالمعرفة بلا تدبر كالنهر السطحي الذي لا يصل إلى الجذور ويمتزج الفكر بالروح ويصبح العقل مرشدًا والقلب مستودعًا للحقائق والروح عاكسة للمعاني العليا في هذه المرحلة يدرك الطالب أن النجاح في طلب العلم لا يقتصر على ما يُحفظ بل على ما يُطبق ويُعاش في الحياة اليومية بحيث يتحول كل موقف إلى قربة وكل تجربة إلى نور في القلب.

عندما يبلغ الطالب مرحلة الإدراك العميق يصبح كل فعل وكل كلمة وكل لحظة انعكاسًا للمعرفة المتحققة في قلبه فالطالب الذي يجمع بين الفكر والعمل والروح يصل إلى مرتبة تجعل المعرفة جزءًا لا ينفصل عن حياته وتصبح الأخلاق والسلوك انعكاسًا للعلم المستقر في قلبه في هذه المرحلة تتضح أمامه روابط الظاهر بالباطن ويكتشف أسرار التجربة التي لا يُدركها إلا من عايش العلم بكل جوارحه.

المراتب العليا للطالب تتطلب منه التنبه الدائم والتفكر المستمر في كل لحظة فالعيش في العلم هو تجسيد للفهم والعمل بحيث يصبح كل درس جزءًا من التجربة الحية وكل تجربة وسيلة للنمو الروحي ويكتشف الطالب أن التفكر

العميق والممارسة العملية هما ما يحققان الوحدة بين المعرفة والواقع وأن السعي الحقيقي للعلم هو سعي للقرب من الحق لا مجرد جمع الكلمات والحروف.

مع مرور الوقت يعي الطالب أن التواضع شرط ضروري للارتقاء في مراتب العلم فالتعالي على المعرفة يعيق الفهم ويمنع إدراك الأسرار العميقة التواضع يمنح الطالب القدرة على التعلم من كل موقف والاستفادة من كل تجربة والتفاعل مع كل علم بطريقة صافية غير متأثرة بالغرور أو التظاهر بهذا التواضع يتحقق التكامل بين العقل والقلب والروح فيصبح كل يوم فرصة جديدة لإدراك الحكمة في كل شيء حوله.

في هذه المرحلة يصبح العمل بالعلم ضرورة ملحة فالطالب الذي لا يطبق ما يعرفه يبقى أسير المعرفة النظرية فقط بينما من يجمع بين العلم والعمل يحقق القرب من الحقيقة ويصبح قلبه مرآة صافية تعكس المعنى وعقله دليلًا للروح في كل تجربة وروحه مرشدة لكل موقف وبهذا يتحقق الانسجام بين الفكر والممارسة بين المعرفة والسلوك بين الحفظ والفهم ليصبح كل فعل قربةً إلى الله.

أخيرًا يبدأ الطالب في اكتشاف أن الرحلة الحقيقية للعلم لا تنتهي بالحفظ أو الفهم النظري بل بالاندماج بين المعرفة والعمل والتقوى يصبح الطالب حينها واعيًا بأن كل لحظة يمكن أن تكون درسًا وكل تجربة فرصة للقرب من الحق وكل كتاب وسيلة لفهم الحياة والمعاني العميقة هذا الإدراك يولد في قلبه شعورًا بالزهد في الدنيا والتعلق بالحقائق العليا والانسجام بين العقل والقلب والروح بحيث تصبح المعرفة سلوكًا والعمل حياة والنية قربةً إلى الله.

قال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

هذه الكلمات تلخص جوهر رحلة الطالب: السعي وراء القمة الجمع بين المعرفة والعمل والتحلي بالروحانية والتقوى بحيث يصبح العلم نورًا لكل لحظة والعمل انعكاسًا للمعرفة والروح مرآةً للحقيقة العليا.

الطالب الذي وصل إلى هذه المرحلة يبدأ بفهم أن العلم الحقيقي لا يكتفي بالحفظ أو النظر السطحي بل يتطلب الوعي الكامل بكل فعل وكل كلمة وكل فكرة إن إدراك المعاني العميقة يتطلب تأملًا مستمرًا في كل موقف بحيث تتحول المعرفة من مجرد كلمات إلى حياة حية داخل النفس في كل يوم يجد الطالب دروسًا جديدة في مواقف الحياة وفي كل تجربة فرصة للتعلم والتدبر بحيث يصبح العمل انعكاسًا لما تعلمه والفكر مرشدًا للروح في مواجهة كل تحدٍ.

المرحلة الحالية تحتاج إلى الانضباط الداخلي حيث يوازن الطالب بين طموح المعرفة ومحدودية القدرات البشرية ويعرف أن التسرع في طلب العلم قد يؤدي إلى الغرور أو الضياع بين الكلمات لذلك يصبح التأني والتفكر والمثابرة عناصر أساسية في رحلته ويكتشف أن المعنى لا يُستخلص إلا حين تتحد التجربة بالنية والروح بالعمل كل يوم يمضي في هذه المرحلة هو تدريب على إدراك سرّ الحياة والمعرفة بحيث يصبح كل ما يحيط بالطالب مادة للتأمل والتعلم وكل لحظة اختبار للروح.

كما يبدأ الطالب في إدراك أن العالم الخارجي مرآة لما بداخله فالمعرفة الحقيقية لا تكمن فقط في الكتب بل في الوعي بما يحدث داخليًا وخارجيًا وكيف يمكن للعلم

أن يشكل سلوكًا يعكس الحكمة الطالب يبدأ بفهم التوازن بين النظرية والتطبيق بحيث يصبح العلم ليس مجرد حفظٍ بل فنًا لإدارة الحياة وفق قيم الحق والتقوى.

يبدأ الطالب بملاحظة أن الحياة تزخر بالمواقف التي تكشف عن عمق الحكمة وأن كل تحدٍّ يواجهه يمثل فرصة لزيادة الإدراك كل فعل يقوم به مهما كان بسيطًا يصبح تجربة تعليمية وكل قرار اتخذه يصبح اختبارًا لمستوى فهمه وعمق إدراكه في هذه المرحلة يتعلم الطالب الاستقلالية في الحكم على الأمور والاستفادة من التجارب بحيث يصبح كل يوم درسًا وكل موقف تجربةً وكل لحظة قربةً إلى الحق والهدف النهائي هو الانسجام بين العقل والقلب والروح.

في هذه المرحلة يدرك الطالب أن التعلم رحلة مستمرة لا تتوقف أبدًا فلا مرحلة تعتبر كاملة إلا إذا تحققت فيها وحدة الفكر والفعل والنية الطالب الذي يجمع المعرفة مع العمل يعيش العلم في قلبه ويطبقه في حياته اليومية الفهم العميق يتطلب الانتباه لكل تفاصيل الحياة حيث يمكن للدرس أن يظهر في أبسط الأمور مثل الحديث مع الآخرين أو مراقبة الطبيعة أو حتى التأمل في الصمت.

ومع إدراك ذلك يتعلم الطالب قيمة الزهد في الدنيا فالمتعلّم الحق لا يسعى وراء المال أو الشهرة بل يركز على استخلاص الحكمة من كل موقف تتضح له أهمية التواضع والنية الخالصة بحيث تصبح المعرفة أداة للنمو الروحي والعمل وسيلة لخدمة الآخرين والروح مستنيرة بالحق كل تجربة يمر بها الطالب تصبح جزءًا من رحلة إدراكه وكل لحظة قريبة من الحقيقة تعمّق فهمه للكون والوجود والمعرفة.

في هذا المستوى يبدأ الطالب بفهم أن الزهد والتقوى ليسا مجرد شعارات بل هما ممارسات يومية تنسجم مع العمل والمعرفة فالزهد الحقيقي هو القدرة على الانفصال عن ما يلهي عن الحقائق العليا بينما تبقى الروح متجهة نحو الفهم

الأعمق لكل ما يحدث الطالب يتعلم تنقية قلبه من الرغبات الدنيوية والتركيز على العلم والعمل والقيم الروحية.

ويصبح كل فعل يفعله الطالب انعكاسًا لدرجة فهمه وكل قرار يعكس مقدار إدراكه للحكمة في هذه المرحلة يختبر الطالب نفسه بشكل مستمر ويصبح كل موقف فرصة لتطبيق المعرفة وتحويل كل درس إلى سلوك عملي بحيث تصبح المعرفة ليست مجرد حفظ أو تكرار بل فن عيش الحياة بعقل متزن وروح متفتحة وقلب نقي.

الطالب يبدأ بفهم أن الحياة كلها مدرسة وأن كل تجربة تعطيه فرصة لتعلم شيء جديد يرى أن النجاح في طلب العلم لا يقتصر على ما يُحفظ أو يُدرك نظريًا بل على مدى تأثير العلم في تصرفاته وسلوكه وأفكاره تصبح الممارسة اليومية بمثابة وسيلة لترسيخ الحكمة وكل موقف يمر به اختبار للفهم العميق.

يظهر للطالب أن الانغماس في المعرفة العملية يمنحه القدرة على التفاعل مع الحياة بوعي وأن الفهم العميق يتطلب قلبًا متفتحًا وروحًا صافية بحيث يمكن للعلم أن يتحول إلى نور يضيء طريقه والعمل يعكس حكمة المعرفة والنفس تتعلم الزهد والتقوى بشكل عملي لتصبح الحياة رحلة متكاملة من التعلم والتطبيق والتأمل.

في هذه المرحلة يتضح للطالب أن العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمار وأن العمل بدون فهم كالجسد بلا روح فيصبح الهدف الأساسي هو تحقيق الانسجام الكامل بين المعرفة والفعل والنية بحيث تصبح كل خطوة على الطريق مدخلًا لفهم أعمق وكل تجربة اختبارًا لمستوى نضجه الداخلي.

مع استمرار الرحلة يبدأ الطالب بفهم أهمية التفكر والتأمل في تعميق المعرفة فالتأمل في الأحداث اليومية والتفكر في الحياة والموت والكون والخلق يجعل الطالب أكثر حكمة وأكثر قدرة على التمييز بين الحقيقة والوهم بين السطح والعمق كل تجربة تصبح أداة للتعلم وكل لحظة فرصة لتعزيز الفهم الروحي.

في هذه المرحلة يصبح الزهد في الدنيا جزءًا من طبيعة الطالب فهو لا يلهث وراء المال أو الشهرة بل يسعى وراء الفهم والتقوى والعمل الصالح ويصبح كل فعل يقوم به انعكاسًا لدرجة نضجه الداخلي وكل كلمة يقولها تعكس الحكمة التي اكتسبها من العلم والمعرفة بحيث يكون العقل والروح والقلب في وحدة متناغمة.

الطالب يبدأ بفهم أن الحياة والموت والنجاح والفشل ليست سوى دروس مستمرة فكل موقف يمكن أن يكون امتحانًا لنضج العقل وصدق القلب وصفاء الروح يتعلم الطالب أن التواضع والنية الصافية أساس وصوله إلى مراتب عليا وأن المعرفة ليست ملكًا له وحده بل وسيلة لخدمة الآخرين.

في هذه المرحلة يصبح كل كتاب يقرأه وكل تجربة يمر بها وكل لحظة يتأمل فيها وسيلة لتقوية الروح وتطهير القلب ورفع النفس نحو الحق يصبح كل يوم مدرسة وكل موقف تجربة وكل معرفة نورًا بحيث تتحد المعرفة بالروح والعمل في وحدة متكاملة.

قال الرسول الامين صلى الله عليه وسلم " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

هذه الكلمات تلخص الهدف النهائي للطالب: أن العلم والعمل والزهد والتقوى جميعها وسيلة لتقوية النفس ورفع الروح والتقرب من الحق بحيث يصبح الطالب

بحق متكاملاً في إدراكه وفهمه وسلوكه ويعيش العلم كحياة يومية والعمل كفن متقن والروح كمرآة للمعاني العليا.

المعرفة ليست مجرد تراكم المعلومات أو حفظ النصوص بل هي رحلة ممتدة نحو إدراك أعماق الحقيقة رحلة تتطلب اندماج القلب والعقل والروح في تجربة واحدة متواصلة كل تجربة مهما بدت صغيرة أو عابرة تحمل إشارات دقيقة يمكن قراءتها فقط بالوعي الكامل الأحداث اليومية الطبيعة العلاقات الإنسانية اللحظات الصامتة كلها مرايا تعكس حقيقة أعمق بحيث يمكن للمراقبة الدقيقة أن تكشف عن روابط لم تكن مرئية سابقًا ويصبح الفكر أداته لفهم الواقع والقلب مفتاحه لتذوق المعنى والروح شاهدة على الحقائق الكامنة وراء الظاهر.

عندما يعيش المرء هذه المرحلة يجد أن المعرفة تتحول إلى قوة داخلية قادرة على توجيه القرار والفعل والنوايا بحيث يصبح كل موقف اختبارًا صادقًا لإدراكه للحقائق العليا تصبح التجارب اليومية سواء كانت تحديات صعبة أو أحداث عابرة أدوات لصقل النفس وتوجيه الفكر وتنقية الروح مع مرور الزمن يزداد إدراك العلاقات الخفية بين الأفكار والأفعال والنتائج ويصبح كل فعل انعكاسًا للمعرفة الداخلية وكل قرار اختبارًا لصدق النية وكل لحظة فرصة للتقرب إلى الحق.

القدرة على التركيز العميق ومراقبة النفس في جميع الأحوال تمنح الباحث عن الحكمة رؤية جديدة للحياة بحيث يصبح كل ما حوله معلمًا وكل حدث درسًا وكل تجربة وسيلة لاختبار فهمه الداخلي يرى الروابط بين الأحداث ويلاحظ تكرار التجارب ويفهم أن الحياة تتكون من إشارات متشابكة يمكن تفسيرها بمنظور عميق يجمع بين الفكر والروح والفعل هذا الوعي المستمر يجعل الطالب يدرك

أن المعرفة لا تنتهي عند حفظ الكتب بل تبدأ عند القدرة على تحويل كل تجربة وكل موقف إلى درس عملي يُحسن العقل ويصفّي القلب ويضيء الروح.

وهكذا تصبح المعرفة ليست مجرد كلمات محفوظة في العقل بل نور يتدفق عبر جميع جوانب الحياة يوجه السلوك ويشكل القيم ويعمّق الفهم ويحول كل تجربة إلى فرصة للارتقاء الداخلي وتصبح الرحلة التي بدأها الباحث مجرد بداية لاكتشاف العمق المستمر للوجود حيث تتجلى وحدة الفكر والعمل والروح في كل لحظة ويصبح العلم ليس هدفًا بل طريقة للعيش والعمل ممارسة للقيم العليا والنية وسيلة للقرب من الحق والروح مرآة للمعاني العميقة.

التجربة العملية تمنح الحياة بعدًا آخر للمعرفة الفهم النظري مهما كان واسعًا يظل ناقصًا إذا لم يطبّق في واقع الحياة اليومية العمل بالمعرفة يحوّل الفكر إلى أفعال والمبادئ إلى سلوكيات والتجربة النظرية إلى إدراك عملي كل موقف يمر به الإنسان سواء في العلاقات أو الأعمال أو التفكير يصبح فرصة لتحويل المعرفة إلى حكمة حقيقية حيث تتكشف طبقات الوعي المخفية ويزداد الإدراك لما هو فوق الظاهر وما هو جوهري في الحياة.

الانغماس في التجربة اليومية مع الاحتفاظ بروح التأمل والتفكر يمنح الباحث القدرة على تمييز الحقيقة من الظواهر والعمق من السطحية والمعنى من الكلمات الفارغة تتضح أهمية المراقبة الداخلية حيث يصبح كل فعل مهما كان بسيطًا أداة للتعلم وكل قرار اختبارًا لنضج الفكر والروح وكل موقف مدرسة لتطوير الذات.

تصبح الحياة سلسلة من الفرص تتطلب اليقظة المستمرة والانتباه الدقيق لكل حدث وكل موقف إذ يمكن لتفصيل صغير في أحد المواقف أن يحمل درسًا أعمق

من كتاب طويل وتجربة قصيرة أن تمنح فهمًا أوسع من سنوات من الدراسة النظرية يصبح العقل أداة للتمييز بين الحقائق العميقة والزيف والقلب مرآة لمعانيها والروح مستعدة لاستقبال الدروس التي لا تُرى إلا بالوعي العميق والانتباه الكامل.

القدرة على تحويل كل موقف وكل تجربة إلى وسيلة للفهم والتعلم تمنح الحياة معنىً جديدًا بحيث تصبح التجارب اليومية جزءًا من رحلة الروح نحو الحقيقة العليا المعرفة لا تقتصر على الكتب أو المحاضرات بل تتجلى في إدراك الروابط الخفية بين الأحداث وفهم الرسائل المستترة في تفاصيل الحياة ورؤية النظام الإلهي الذي ينسق الكون والخلق بحيث يصبح كل يوم رحلة لاكتشاف المعنى وكل لحظة قربة إلى الحق وكل فعل انعكاسًا للمعرفة الداخلية وكل قرار اختبارًا للنية والوعي.

الصبر والتحمل هما أساس إدراك الحقائق العميقة كل موقف يواجهه الإنسان يشكل اختبارًا حقيقيًا لصقل الفكر وتنقية القلب وتوجيه الروح نحو المعنى الأعلى الضغوط والمحن تمنح القدرة على التفكر في الذات وفي الكون وتمكن العقل من فهم العلاقات بين الأحداث المختلفة وتحليل النتائج المتوقعة والمترتبة على الأفعال يصبح التحدي فرصة للارتقاء الداخلي والتأمل في المواقف فرصة لتطوير الذات كل درس صغير يصبح جزءًا من إدراك أعمق للحقائق وكل تجربة عابرة تمنح وعيًا جديدًا لارتباط الفكر بالعمل والنية بالروح.

مع مرور الزمن يكتشف الباحث أن المعرفة لا تعني مجرد جمع المعلومات بل قدرة القلب على فهمها والتفاعل معها في الواقع القدرة على مراقبة النفس وتقييم الأفعال وتهيئة العقل لاستقبال التجارب الجديدة تجعل المعرفة نورًا يضيء

الطريق الروحي تصبح المواقف اليومية فرصة لاختبار النية والصدق ويصبح كل فعل انعكاسًا للفهم الداخلي وكل قرار اختبارًا للحكمة وكل لحظة قربةً إلى الحق.

التوازن بين التعلم النظري والممارسة العملية يمثل حجر الأساس للحكمة العميقة المعرفة بدون تطبيق تصبح مجرد ظواهر سطحية والعمل بدون فهم يصبح حركات آلية بلا روح كل موقف يمكن أن يتحول إلى درس عملي إذا نظر الإنسان بعين التدبر وفكر بعمق وعاش التجربة بروح متفتحة القدرة على دمج الفكر بالعمل والنية بالروح تجعل التجارب اليومية حقيقية ومعبرة بحيث تصبح الحياة كلها مدرسة مستمرة والوعي المستمر وسيلة لفهم الحقيقة العليا والنية وسيلة للارتقاء الداخلي والفعل انعكاسًا للمعرفة المكتسبة.

القدرة على تمييز ما هو مؤقت وما هو دائم ما هو سطحي وما هو عميق تمنح المرء رؤية جديدة لكل موقف وكل تجربة يصبح كل فعل مهما بدا صغيرًا أداة لاختبار مدى صواب الفهم وكل قرار اختبارًا للقدرة على التوازن بين العقل والروح وكل تجربة فرصة لاكتساب الحكمة يكتشف الباحث أن الحياة مليئة بالعلامات الخفية وأن كل حدث يعكس نظامًا دقيقًا يمكن فهمه بالوعي العميق والتفكر المستمر.

القدرة على مراقبة النفس باستمرار هي سر التقدم في طلب العلم والحكمة كل كلمة تُقال وكل فعل يُنفذ وكل فكرة تُبنى في العقل جميعها تخضع للاختبار الداخلي يصبح التفكير المتأني في الأحداث اليومية أداة لفهم العلاقات بين السبب والنتيجة بين المعنى والظاهر بين الروح والجسد كل موقف يمر به المرء يصبح فرصة للتعمق في فهم الكون والتعرف على قوانين الحياة الخفية واستيعاب الدروس المخفية وراء كل تجربة.

يقول الله تعالى» :*وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا* «(طه: 114) فتظل المعرفة وسيلة للتقرب إلى الله والفهم العميق أداة لتوجيه السلوك والتجربة اليومية وسيلة لتطبيق الحكم والنية مصدرًا للارتقاء الداخلي بحيث تصبح الحياة رحلة مستمرة للتعلم والعمل والتقوى.

التجربة اليومية تكشف للباحث عن الحكمة العميقة المتخفية خلف التفاصيل الصغيرة القدرة على قراءة العلامات وفهم ما وراء الظاهر تعطي الإدراك قيمة عملية وتحول الحياة إلى مختبر دائم لصقل الفكر والروح كل موقف يُختبر فيه الإنسان يصبح وسيلة لتطوير الفهم الداخلي وكل تجربة تمنح القدرة على معالجة المواقف المستقبلية بالحكمة وكل لحظة تعطي فرصة للتقرب من الحق.

مع مرور الوقت يصبح كل حدث سواء كان عاديًا أو استثنائيًا جزءًا من منهج التعلم المستمر حيث تتشابك المعرفة مع العمل وتتحد النية بالروح ويصبح الفعل انعكاسًا للفهم الداخلي تتجلى القدرة على التعامل مع الحياة بوعي كامل وفهم العلاقات بين الأحداث وتقييم النتائج وتعلم كيفية توظيف التجارب اليومية لتحقيق الانسجام بين الفكر والعمل والروح.

يصبح الإدراك مستمرًا في كل تفاصيل الحياة حتى في أصغر الأحداث تتجلى الحكمة في القدرة على رؤية العلاقات المخفية بين الأحداث وقراءة ما وراء الظاهر واستيعاب الدروس العميقة تصبح الحياة كلها مختبرًا مستمرًا للفهم العميق وتتحول المعرفة إلى نور يضيء الطريق الروحي ويقود الفعل نحو القيم العليا ويجعل الروح مرآة للحق.

التجربة اليومية تكشف عن مستويات جديدة من الوعي كل موقف مهما كان بسيطًا يمكن أن يكون مدرسة لتطوير الفكر والروح القدرة على التأمل في الأحداث

والتدبر في النتائج ومراقبة النفس باستمرار تعطي معنى حقيقي للحياة تصبح كل لحظة فرصة لاختبار القدرة على التمييز بين الحق والباطل بين الدائم والزائل بين العمق والسطحية بين ما يثري الروح وما يشتت العقل.

وجاء في وصية أمير المؤمنين علي رضي الله " العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال" هذه المقولة هي جوهر المرحلة المتقدمة من التعلم: المعرفة ليست مجرد حفظ أو معلومات بل هي حياة متكاملة تتجلى بالعمل والتقوى والزهد والتأمل كل تجربة درس وكل موقف اختبار وكل لحظة قربةً للحق تجعل الإنسان أكثر حكمة وأكثر قدرة على إدراك المعاني العميقة وتربطه بالحقائق العليا في كل لحظة من حياته اليومية.

إدراك الروابط بين المعرفة والعمل والروح يجعل الحياة كلها سلسلة متواصلة من التجارب التعليمية بحيث تصبح كل لحظة درسًا وكل موقف اختبارًا وكل تجربة وسيلة للارتقاء الداخلي تصبح الحياة مدرسة دائمة والوعي المستمر أداة للتفكر العميق والنية وسيلة للارتقاء والفعل انعكاسًا للحكمة المكتسبة والروح مرآة للحقائق العليا.

قال الشاعرُ:

العلم يحيي النفوس ويمحو جهل الأنامِ

ومن لم يطلبه في الحياة مات وهو في ظلامِ

هذا البيت يختصر جوهر الصفحات: السعي وراء العلم ليس حفظًا أو تراكمًا بل حياة متكاملة تنعكس على الفكر والروح والعمل والنية كل تجربة درس وكل موقف اختبار وكل لحظة قربةً للحق تجعل الإنسان أكثر حكمة وقدرة على فهم المعاني العميقة للوجود وتربطه بالحقائق العليا في كل لحظة من حياته اليومية.

الباب الرابع: العلم والزهد

العلمُ نورٌ يكشف ظلمات الجهل والزهدُ صفاءٌ يطهّر القلب من التعلّق بالدنيا فإذا اجتمع النور والصفاء وامتزج العقل بالروح وُلد إنسانٌ ربّانيّ يزن الأمور بميزان الحكمة ويضع العلم في خدمة الحقّ ويجعل الزهد سياجًا يحفظه من طغيان الشهوة وغرور المعرفة.

ليس العلم في جوهره خصومةً للزهد ولا الزهدُ في حقيقته عداءً للعلم بل إنّ كليهما جناحان ينهض بهما القلب الساعي إلى الله ويستقيم بهما العقل في فهم أسرار الوجود وإذا كان العلم هو البصيرة التي تُدرك حقائق الأشياء فإن الزهد هو القوة الروحية التي تحرّر تلك البصيرة من أسر الهوى وحبّ الدنيا.

الفصل الأول: معنى العلم ومكانته

الحمد لله الذي جلَّى غياهبَ الجهل بأنوار العلم وأقام بنيانَ الوجود على أسس الحكمة فجعل العقلَ مناطَ التكليف وجعل العلمَ ميراثَ الأنبياء فكان به رفعُ الدرجات وكشفُ الكُرُبات وتنويرُ البصائر المعتمات فإنّ العلم حقيقةٌ علويّة ومعجزةٌ ربانية وسرٌّ جليل مودَع في طينة الإنسان يرفع به الله أقواماً فيجعلهم أئمّة هداة ويضع به آخرين إذا اتخذوه مطيّةً للهوى ومركبًا للزهو والعلم في جوهره ليس مجرّد صورة تُحفظ ولا ألفاظٍ تُردَّد بل هو نور يفيض على العقل فيصقله وينسكب على القلب فيطهّره ويستولي على الروح فيزكّيها فإذا اجتمعت هذه الأنوار صار صاحبها إماماً في الدنيا وحُجّةً في الآخرة.

وإنّك إن فتّشت في معنى العلم وجدته تمييزاً بين الحق والباطل ونفاذاً من ظلمات الوهم إلى ضياء اليقين ورسوخاً في إدراك الكليات مع إحاطة بالجزئيات؛ فهو مفتاح باب الحكمة وجوهر الفضيلة وأشرف ما تتزيّن به النفس الناطقة ولولا

العلم لظلّ الإنسان في رتبة البهائم تحكمه الغرائز وتجرّه الشهوات ولكنه بالعلم ارتفع فصار خليفةً في الأرض مأموراً بالعمارة والتسخير.

ولمّا كانت الدرجات متفاوتة جعل الله العلم سلّم الارتقاء فمن حاز منه نصيباً ارتفع ومن خلا منه تردّى في مهاوي الجهل قال تعالى :﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ فجمع بين الإيمان والعلم؛ إذ لا يُغني أحدهما بغير الآخر ولا يستقيم أحدهما إلا بالآخر.

ثم اعلم أنّ مكانة العلم لا تُقاس بكثرة محفوظات ولا تُوزن بوفرة المؤلفات وإنما تُقاس بقدر ما يُثمره من هدايةٍ وخشية؛ فمن لم يزده علمه خَشيةً لله فذلك علمٌ عقيم ومن أورثه العلمُ كبراً ورياءً فقد انقلب وبالاً عليه فصار حجاباً لا هدى وظلمةً لا نور ألا ترى أنّ الله وصف العلماء الحق بأنهم أهل خشية :﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فجعل الخشية ثمرة العلم وجعل العلم وسيلة لا غاية.

والعلم وإن تفرّقت فنونه وتنوّعت مدارسه فحقيقته واحدة :نور يقذفه الله في قلب عبده يعرّفه به الحقائق على ما هي عليه ويهديه إلى سواء السبيل وأمّا صور العلوم التي يقتصر صاحبها على الجدل والمكابرة فهي رسومات خالية وقشور بالية لا تزيد القلب إلا قسوة ولا تزيد الروح إلا ظلمة كمن يحمل مصباحًا مطفأً يتوهّم أنه على هدى وهو في ظلمات بعضها فوق بعض.

ولقد كان العلم في الشرائع كلّها مَناط الرسالة إذ لا نبوّة بلا علم ولا هداية بلا بيان ولا إمامة بلا بصيرة فالأنبياء ورثة الحكمة والعلماء ورثة الأنبياء؛ فما أكرم نسبهم وما أجلّ منصبهم! هم نجوم الأرض إذا أظلمت ومصابيح الدجى إذا أطبقت وحُرّاس الملة إذا اضطربت ثم إنّك إن تأمّلت حال العلماء الراسخين وجدتهم أزهد الناس في الدنيا وأبعدهم عن التنافس فيها لأنهم علموا حقيقتها فانكشف لهم

زيفها؛ فكان علمهم سبباً لزهدهم وزهدهم سبباً لطهارتهم وطهارتهم سبباً لقبولهم عند الله وخلقه فما أشرف هذه المنزلة! وما أعظم هذه الرتبة!

فيا طالب العلم: اعلم أنّ العلم شجرة أصلها التقوى وفرعها الخشية وثمرتها العمل فمن طلبه لغير الله كان كمن يغرس شجرةً في أرض سبخة فلا تنبت إلا عوجًا ومن طلبه لله أثمر له نورًا في القلب ولسانًا صادقًا وعملاً صالحًا وزُلفى عند ربه يوم يقوم الأشهاد فالعلم الحق هو الذي يربط بين العقل والروح بين الظاهر والباطن بين المادة والمعنى وهو الطريق إلى الحكمة إذ قد يمتلك الإنسان معرفةً واسعة لكنه يفتقد للحكمة إن لم يكن له قلبٌ يخشى الله.

تعريف العلم عند أهل النظر

العلم عند أهل الحقيقة ليس صورةً تُختَزن في وعاء الذهن ولا شكلا يُنقش في صحيفة الوهم بل هو نورٌ قدسيٌّ يتسرّب إلى لطيفة القلب فيحوِّلها من ظُلمة الحيرة إلى إشراق اليقين فكلّ علمٍ لا يُثمر صفاءً في الباطن ولا خضوعًا في الظاهر فهو جهلٌ وإن توشّح بكساء العلم للعلم معانٍ تتفاوت باختلاف المنازع: فهو عند المتكلّمين "اعتقاد الشيء على ما هو به مع اليقين" وهو عند الحكماء "صورة الشيء المرتسمة في العقل" وهو عند العارفين "نور يقذفه الله في القلب" وما ذُكر أولى من أن يُقال: إن العلم روحٌ يُسكب في جسد المعنى وحياةٌ تُنفخ في رميم الإدراك.

تميّزه عن الجهل

الجهل حجاب كثيف والعلم مفتاح شريف؛ الجهل ظلمة تراكمت طبقاتها والعلم نور يبدّد دياجيها الجاهل أسير وهمه والعالم حرّ بفكره فإذا أردت أن تفرّق بينهما فانظر: من قاده وهمه إلى حضيض الشهوة فهو جاهل؛ ومن قاده علمه إلى علوّ الحكمة فهو عالم وإن كان قليل المحفوظ.

مكانة العلم ومرتبته

شرفه الذاتي

العلم شريف بذاته لا بشيء خارج عنه؛ إذ هو صفة الحق سبحانه ومن أشرب شيئًا من العلم فقد أُشرب أثراً من آثار الصفات الإلهية فهل ترى رتبةً أرفع من أن يكون العبد متخلّقًا بشيء من صفات مولاه؟

رفعته الدنيوية

العلم تاجٌ على رؤوس أهله يراه الناس وإن لم يروه ويخشع له من في الأرض وإن لم يأمرهم فالملِك محتاج إلى العالم ليستقيم ملكه والتاجر محتاج إلى العالم لئلا يغترّ بربحه والعامّة محتاجون إلى العالم ليهتدوا في ظلمات حيرتهم فالعلم عمود العمران وروح الأديان وأصل كل سلطان.

مرتبته الأخروية

أمّا في الآخرة فالعلم نور يسعى بين يدي صاحبه يضيء له مسالك القيامة ويرفعه في درجات الجنان وقد قال تعالى :﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ فجعل رفعةَ الدرجات جزاء العلم المقرون بالإيمان لا العلم المجرّد عن الخشية.

ثمرات العلم وآثاره:

إصلاح الباطن

العلم يُصفّي السريرة من كدر الجهالة فإذا ورد على القلب جعله كالمِرآة الصافية يُجلي صدأها ويصقل صفحتها فالعالم الحق هو من صار قلبه كتاباً مفتوحاً يقرأ فيه الحقائق قبل أن يخطّها في الأسفار.

تهذيب الظاهر

كما أنّه يصلح الباطن فهو يُهذّب الظاهر فيحوِّل الجوارح إلى آلات طاعة والأعضاء إلى خدام عبادة فلا ترى العالم إلا وقورًا في مشيته متأنّيًا في لفظه رزينًا في مظهره لا يغريه زيف المظاهر ولا يخدعه بريق السراب.

بثّ الهداية

ثم إن العلم كالسراج إذا وُضع في بيتٍ أضاء ما حوله فلا يقتصر نوره على صاحبه بل يمتدّ إلى غيره فالعلماء مصابيح الدجى بهم يُهتدى وعلى هديهم يُقتدى وإن غابوا بأجسادهم بقي أثرهم في آثارهم ونورهم في كتبهم وكلماتهم في قلوب من تعلّم عنهم.

فصل في ضدّ العلم وانحرافه

العلم المذموم

ليس كلّ ما يُسمّى علماً محموداً؛ فهناك علمٌ كالعُشب السامّ يزيّن الأرض لكنه يُهلك الحيوان وذلك العلم الذي يُطلب للدنيا أو يُبتغى للرياء أو يُستخدم في الباطل هذا علمٌ لا يورث إلا وبالاً وهو على صاحبه حجّة لا له.

في الجهل المركّب

أخطر من الجهل البسيط جهلٌ مركّب وهو أن يجهل المرء وهو يظنّ أنه عالم فيجمع بين ظلمة الجهل وغرور العلم وهؤلاء هم الذين قال فيهم السلف: "ابتلاؤنا بجهّال متعالمين أضرّ علينا من بلائنا بكفار جاهلين."

فصل في اجتماع العلم والعمل

ضرورة العمل بالعلم

العلم بلا عمل كالسحاب بلا مطر وكالشجر بلا ثمر؛ يُغري الناظر ولا يُغني الزارع فالعبرة أن يتحوّل العلم إلى عمل وإلا صار حُجّةً على صاحبه يُطالَب به يوم القيامة فيُعذَّب على تركه.

ثمرة العمل مع العلم

إذا اجتمع العلم والعمل أورثا الحكمة وهي أعلى المقامات والحكمة أن ترى بنور الله وتتكلم بميزان الله وتتحرك على منهج الله فلا تُخطئ وإن أخطأت ولا تضلّ وإن ضلّ الناس فالخلاصة أنّ العلم هو أشرف ما تتزيّن به النفس وأعظم ما يُتقلّد من الفضل ومفتاح كل خير لكنه لا يُنال إلا بخضوعٍ لله وزكاءٍ للنفس وصفاءٍ للنية فهو ترياق الجهل وميزان العقول وسراج السالكين ومن عظّم مكانته بحق فقد عظّم الدين كلّه ومن استخفّ به فقد أضاع شرف الإنسان وهبط إلى حضيض الحيوان.

الفصل الثاني: معنى الزهد وحقيقته

الحمد لله الذي زيّن قلوب أوليائه بالزهد فخلع عليهم حُلل التجريد وأخرجهم من إسار الأوهام إلى فضاء الإخلاص والتسليم وجعل الدنيا لهم جسراً يعبرون به إلى دار المقام ولم يجعلها وطناً يركنون إليه أو مأوى يستريحون فيه الزهد في أصله

ليس تحريمًا للطيبات ولا عزوفًا عن العمل بل هو انصراف القلب عن التعلّق بما يفنى وتوجّهه بكليته إلى الباقي قال الحسن البصري :*ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك* فالزهد قوة داخلية تحرّر الإنسان من عبودية الشهوة وتجعل الدنيا في يده لا في قلبه وهو جوهر الحرية الروحية لأنّ من زهد في الدنيا ملكها ومن تعلّق بها صار عبدًا لها الزهد في حقيقته ليس انصرافًا جافًّا عن الدنيا ولا انقطاعًا جسديًّا عن عمرانها بل هو حركة قلبية وانصراف سرّي عن التعلّق بما لا يبقى وتجرّد باطني عن رقّ الأمل الكاذب فالزهد أن تملك الدنيا وهي في يدك دون أن تملك قلبك وهي في صدرك؛ أن تُعاشرها معاشرةَ الغريب في دار عابرة وتتعامل معها تعاملَ المستعير مع العارية يعلم أنّها مردودة إلى صاحبها.

وقد غلط كثير من الناس حين ظنّوا الزهد خلوّ اليد وما هو بخلوّ اليد بل بخلوّ الفؤاد؛ فقد يكون المرء غنيًّا زاهدًا كما قد يكون فقيرًا راغبًا فالمعيار إذن ليس ما في الكف بل ما في القلب وليس فيما تراه الأعين بل فيما تضمره الضمائر.

وللزهد مراتب تتفاوت:

1. زهد العوام :وهو ترك الحرام خوفًا من العقوبة والابتعاد عن المشتبهات اتقاءً من الريبة.
2. زهد الخواص :وهو الإعراض عن المباحات الفاضلة طلبًا للأجر وترك فضول الدنيا رغبة في ثواب الآخرة.
3. زهد خواص الخواص :وهو انخلاع القلب من كل ما سوى الله حتى لا يبقى فيه إلا محبة المولى فلا يلتفت إلى جنّة ولا نار ولا يُفتن بعرض ولا جاه بل يرى الله وحده الغاية والمقصد.

فالأولون زهدوا في الدنيا رجاءَ النجاة والآخرون زهدوا فيها رغبةً في الثواب وأهل الصفوة زهدوا فيها طلبًا للحقّ وحده الزهد ليس شعارًا يُرفع ولا لفظًا يُردَّد بل له دلائل وعلامات:

- أن يستوي عند العبد مدح الناس وذمّهم إذ قلبه معلق بمدح الله وحده.
- أن تكون الدنيا في يده كالملح في الطعام إن زاد أفسد وإن نقص أضرّ وإن وُضع بقدرٍ صلح.
- أن يفرح بما يقرّبه إلى الله ويحزن مما يبعده عنه لا بما يجيء ويذهب من أعراض الدنيا.

الزهد يورث الطمأنينة ويُخرج القلب من ضيق الحرص إلى سعة الرضا ومن عذاب الطمع إلى برد القناعة فالزاهد حرٌّ وإن كان عبدًا وغنيٌّ وإن كان فقيرًا وعزيزٌ وإن كان ذليلاً في أعين الناس لأن الغنى غنى النفس والكرامة كرامة الروح والعزّة عزّة القرب من الله إن الزهد يفتح أبواب الحكمة فمن جرّد قلبه من علائق الدنيا أسكن الله فيه أنوار المعرفة ولهذا قيل" :من زهد في الدنيا أنبت الله الحكمة في قلبه وأطلق بها لسانه" فكان الزهد أصلًا والحكمة ثمرة والعلم غذاءً لتلك الثمرة.

غير أنّ للزهد حدودًا لا يجوز مجاوزتها؛ فمن جاوز به حدَّ الاعتدال صار إلى الرهبانية المبتدَعة التي لم يكتبها الله ومن قصر فيه صار إلى التعلّق والركون فالزهد الحق هو أن تعيش في الدنيا وأنت تملكها لا وهي تملكك؛ أن تباشر أسبابها من مطعم ومشرب ومسكن لكن دون أن تستقرّ في قلبك ودون أن تصير غايةً لمطمعك.

الفصل الثالث: التلاقي بين العلم والزهد

الحمد لله الذي جعل العلم سراجًا تهتدي به القلوب وجعل الزهد جناحًا تحلّق به الأرواح في فضاء الصفاء فكان العلم للزهد قوامًا وكان الزهد للعلم تمامًا وكان بينهما نسبٌ لا ينفصم ووصلٌ لا ينقطع حتى كأنّ أحدهما ظلّ الآخر أو كأنّهما توأمان خرجا من رحم الحكمة إنّ العلم في حقيقته كشفٌ عن بواطن الأسرار وإدراكٌ لما وراء الصور والأشكال فإذا لم يُثمر زهدًا كان كسيفٍ بلا نصل أو كجسدٍ بلا روح والزهد . في جوهره . تفريغٌ للفؤاد من شواغل الدنيا فإذا لم يكن عن علمٍ بصيرٍ صار جفاءً أو تنطّعًا أو هروبًا أجوف فالعلم بلا زهد مكرٌ يضلّ والزهد بلا علم خيالٌ يزلّ وإنّما الكمال في اجتماع الطرفين إذ يتساندان تساند الروح والجسد.

فالعلم هو البصيرة والزهد هو الجرأة على الانخلاع من زخارف الحياة فإذا اجتمعا أشرقا على القلب نورين: نورٌ يعرّفك ونورٌ يجرّدك نورٌ يكشف ونورٌ يكفّ نورٌ يبيّن لك الطريق ونورٌ يطهّرك من علائق السلوك فيه العلم يدعو إلى الزهد والزهد يحرس العلم فمن علم أنّ الدنيا ظلّ زائل ومرآة خدّاعة وأنّ الآخرة دار القرار دعاه علمه إلى الزهد فيها ومن زهد فيها خلص قلبه من التعلّق فصار وعاءً صافيًا لعلوم الحقائق فكأنّ العلم بذرةٌ والزهد تربة والبذرة لا تنبت إلا في تربة نقية.

فإنّ العلم في قلبٍ ملوّثٍ بالدنيا كالنقش على ماء لا يثبت أثره ولا يدوم ذكره وإنّ الزهد بلا علم كبيتٍ بلا سراج يسكنه صاحبه لكن في الظلمة فالتلاقي بينهما إذن ليس اجتماعًا اعتباطيًا بل هو ضرورة وجودية وشرط لنقاء السير في مدارج المعرفة لم يكن العلماء العظام إلا زُهّادًا ولم يكن الزهّاد الكبار إلا علماء فهذا الإمام أحمد مع علمه بالفقه والحديث كان زاهدًا في السلطان والدنيا لا يقبل جوائزهم ولا يخضع لإغراءاتهم وهذا سفيان الثوري إمام الزهد لم يكن جهولًا بل كان باحثا في

العلم يحفظ آلاف الأحاديث ويعرف دقائق الحلال والحرام وكذلك الحسن البصري جمع بين دموع الزهد وأحاديث العلم فكان لسانه ناطقًا بالحكمة وقلبه مترعًا بالخشية.

العلم يرسم للإنسان صورة الوجود والزهد يطهّر تلك الصورة من شوائب الرغبة فإذا اجتمع العلم والزهد صار القلب كالمرآة الصافية يرى الأشياء على حقيقتها لا كما توهمه الأهواء فالعالم الزاهد لا يخدع بما يُبهر العيون ولا يفتن بما يلمع من زخارف لأنه يعلم حقيقتها ويزهد فيها معًا.

إنّ العلم وحده قد يورث كِبرًا إن خلا من الزهد والزهد وحده قد يورث غفلة إن خلا من العلم أما إذا اجتمعا أورثا حكمة راسخة :علماً لا يُغري وزهدًا لا يُضلّ الكمال كلّ الكمال أن يكون العبد عالِمًا زاهدًا لا أن يكون عالمًا راغبًا ولا زاهدًا جاهلًا لأن العالم إذا لم يزهد كان علمه حجةً عليه والزاهد إذا لم يعلم كان زهده وهماً عليه وإنما المطلوب أن يلتقي النوران: نور الكشف ونور الكف نور العقل ونور القلب نور العلم ونور الزهد.

وهذا التلاقي هو ما جعل السلف يصفون العلم بأنه قائد والزهد بأنه راحلة فإذا انفرد أحدهما ضلّ السالك أو انقطع وإذا اجتمعا بلغ الغاية العلم من غير زهد قد يتحوّل إلى سبب للغرور والكبرياء إذ يجعل صاحبه أسيرًا لمكانته أو سلطانه المعرفي والزهد من غير علم قد ينقلب إلى جهل وانعزال فيترك صاحبه عاجزًا عن فهم الحياة

لكن حين يلتقي العلم بالزهد يتحقق التوازن:

- العلم يمنع الزاهد من الغلوّ والخرافة.

- الزهد يمنع العالِم من الكبر والاستعلاء

وبهذا يجتمع العقل والروح في منظومة واحدة تؤسس لإنسان حكيم ربّاني.

الخاتمة

فالعلم والزهد صنوَان متساندان لا يكمل أحدهما إلا بصاحبه ولا يثمر أحدهما إلا في حضن الآخر فمن رام العلم بلا زهد عرّض نفسه للغرور والرياء ومن رام الزهد بلا علم ضلّ في مهاوي الوهم والابتداع ومن جمعهما فقد جمع الحكمة كلّها وصار نورًا على نور اللهم ارزقنا علمًا نافعًا يثمر زهداً وزهداً صادقاً يحفظ علماً حتى نكون من أوليائك الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

الفصل الرابع: نماذج قرآنية

الحمد لله الذي اصطفى أنبياءه بصفاء الزهد وجعلهم أعلاماً يُهتدى بها في مدارج الخلاص وأقام بهم البرهان على أنّ حقيقة العبودية ليست في زخرف الحياة ولا في بهرج المتاع وإنما في انخلاع القلب عن علائق الأكوان وانقطاعه إلى مكوّنها فكانوا مصابيح الدجى ونُجباء الورى وأوتاد الأرض في ورعٍ وخشيةٍ وخضوعٍ لا تميل بهم الدنيا بملذّاتها ولا تستميلهم الأهواء بزخرفها محمد صلى الله عليه وسلم كان أكمل نموذج في الزهد الحقيقي والزهد عنده لم يكن مجرد تقشف جسدي بل كان زهدًا قلبيًا وروحيًا متجذرًا في الإيمان والعلم والعمل ويمكن تلخيصه على النحو التالي:

الزهد في الدنيا

- كان النبي ﷺ يعيش حياة بسيطة جدًا متواضعًا في مأكله وملبسه ومسكنه.

- لم يكد يمتلك شيئًا من الأموال أو الممتلكات الدنيوية وكان يجمع بين الزهد والبذل في سبيل الله.
- كان إذا ملك شيئًا قليلًا كان يستعمله للفقراء والمحتاجين ولم يربطه قلبه بما يمتلك.

الزهد في السلطة والجاه

- رغم كونه قائدًا سياسيًا واجتماعيًا لم يطلب السلطة لنفسه ولم يزهد وراء المجد الدنيوي.
- كان يعيش بين أصحابه كأحدهم ولم يتخذ من موقعه سببًا للتكبر أو الترف.

الزهد في التعلق بالعالم

- كان دائم الانشغال بالآخرة وجعل قلبه معلقًا بالله وحده.
- كان يربي أصحابه على ترك التعلق بالمظاهر والدنيا والاعتماد على الله في كل الأمور.

التوازن بين الزهد والعمل

- لم يكن الزهد عنده تقشفًا بلا فائدة بل كان زهدًا متوازنًا مع العمل والعبادة بحيث يعيش في الدنيا دون أن يكون لها عبدًا ويشتغل بما أمره الله به دون أن يغتر بالمتاع.
- كان نموذجًا للزهد العملي الذي يحرّر القلب ويزيد في الطاعة والإخلاص.

زهد الخليل إبراهيم عليه السلام

لقد كان إبراهيم الخليل. سلام الله عليه. أمةً في الزهد وحده إذ تبرّأ من أبيه وقومه وما يعبدون فلم يأنس بسندٍ سوى ربّه ولم يطمئنّ إلى ظلٍّ غير ظلال توحيده

ألقي في النار فكانت بردًا وسلامًا فما اكترث بحرّ الدنيا إذ امتلأ بحرارة اليقين وما هاله لهبها إذ تحصّن بجناب رب العالمين هذا الزهد الذي جعله يترك الوطن والقرابة والولد امتثالًا لأمر الله حتى بلغ من صفاء التجرّد أن أُمر بذبح فلذة كبده إسماعيل فما تردّد بل استجاب إذ الزهد عنده ليس كلمةً تقال بل فناءً في إرادة الله وفناءً عن إرادة النفس.

زهد الكليم موسى عليه السلام

وأما موسى الكليم فكان زاهداً وإن ملك العصا التي فلق بها البحر لأنّ قلبه لم يعلّق بحطام الملك ولا بأبهة الفرعون خرج هاربًا من القصور إلى مدائن شعيب فأوى إلى الظلّ وقال: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} تلك الكلمة وحدها تختصر فلسفة الزهد في القرآن: افتقارٌ محضٌ إلى الله وإعراضٌ تامٌ عن زخارف الدنيا لم يكن له مأوى ولا زاد ولا قوة غير أنّه في فقره كان أغنى الأغنياء إذ اتّصل قلبه بمصدر الغنى المطلق.

زهد عيسى ابن مريم عليه السلام

وأما روح الله وكلمته عيسى ابن مريم فقد كان أيقونة الزهد وسراج التجرّد عاش بلا مالٍ ولا دار يمشي في الأرض طريدًا حافيًا يبيت على الحجارة ويلتحف السماء طعامه بقل الأرض وماؤه العيون الجارية قال الله عنه: {وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} فكان مثلاً في التواضع ومثلاً في الورع ومثلاً في الانقطاع إلى الله حتى كأنّ الدنيا لم تخلق له ولم يُخلق لها.

زهد سليمان عليه السلام

أوتي علمًا وحكمة وسلطانًا لكنه قال :﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ فلم يُغره الملك ولا المعرفة كان علمه مقرونًا بزهدٍ جعل قلبه خاضعًا لله.

زهد يوسف عليه السلام

جمع بين العلم (تأويل الرؤى وتدبير الاقتصاد) وبين الزهد (الإعراض عن نساء القصور وزينة الملك).

زهد أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام ابتُلي في جسده وأهله وماله فزهد في نعيم الدنيا الذي زال وصبر على بلائها الذي نزل فما زاده الفقد إلا قربًا وما أضعفته الأسقام إلا رفعة كان لسان حاله يقول: "إن كان لي ربٌّ فلا أبالي ما فاتني من الدنيا" فصار نموذجًا خالدًا على أنّ الزهد ليس مجرد تركٍ للمال بل صبرٌ عند زواله وشكرٌ عند قلّته وثباتٌ في وجه حرمانه.

زهد عباد الله الصالحين

ولم تقتصر النماذج القرآنية على الأنبياء وحدهم بل شملت عباد الله من الصالحين فهذا لقمان الحكيم على بساطة شأنه رُفع ذكره بالزهد والحكمة فوعظ ابنه بأنّ الدنيا غرور وأنّ الاستقامة مع الله هي النجاة وكذلك أصحاب الكهف فتيةٌ آمنوا بربهم ففرّوا من زينة قصور قومهم إلى ظلال كهف مظلم آثروا الخشونة على الترف والوحدة على الصحبة والظلمة على الزخرف والخضر :عِلم لدنّي وزهد في الدنيا يمثّل أن المعرفة الحقة تُفتح لأولياء الله الذين زهدوا في زخرفها فجعل الله قصتهم آيةً خالدة في كل كتاب.

المعنى الجامع لزهدهم

إنّ الجامع بين هؤلاء جميعًا أنّهم لم ينكروا نعمة الله إذا أُعطوا ولم يجزعوا إذا حُرموا بل كانوا في العطاء شاكرين وفي البلاء صابرين وفي الحالين زاهدين فزهدهم لم يكن تحريمًا لما أحل الله بل كان إدراكًا لحقيقة أن الدنيا ظلٌّ عابر وأنّ العمر ومضة وأنّ الفناء مآل كل باقٍ.

الرؤية الفلسفية لزهدهم

فالزهد القرآني ليس مجرّد تركٍ للحطام بل هو موقفٌ وجوديّ يكشف للإنسان أنّ القيمة ليست في المتاع وإنما في العلاقة مع خالق المتاع إنّ الأنبياء لم يزهدوا في الدنيا لأنها لا تُطاق بل لأنهم عرفوا حقيقتها وأبصروا زيفها فكان علمهم سبيل زهدهم وكان زهدهم ثمرة علمهم فالتقت البصيرة بالورع واجتمع العقل مع الخشية وتجلّت الحقيقة في صورة العبودية الخالصة.

الخاتمة

فالنماذج القرآنية من الأنبياء والمرسلين ومن عباد الله الصالحين إنما هي مرايا تعكس صورة الزهد الحقّ: زهدٌ لا يزري بالعمل ولا يحرم من المباح بل يحرّر القلب من عبودية المتاع إلى عبودية خالق المتاع وهكذا كان إبراهيم في تضحيته وموسى في فقره وعيسى في تجرده وأيوب في صبره وأصحاب الكهف في هجرتهم ولقمان في حكمته نماذج سامية تُبيّن أن الزهد ليس انقطاعًا عن الدنيا بالجسد بل انفصالاً عنها بالروح حتى لا يبقى في القلب سوى الله.

الفصل الخامس: العلم بلا زهد – آفة الحضارة

الحضارة الحديثة بلغت ذروة العلم لكنها مع ذلك غارقة في المادية فالعلم عندها أداة للهيمنة لا طريقًا للهداية وقد رأينا كيف أنتجت المعرفة النووية سلاحًا يهدد البشرية وكيف سخّرت التكنولوجيا لاستعباد الإنسان بدل تحريره والسبب غياب الزهد؛ لأن الزهد يكبح الطغيان ويجعل العالم متواضعًا أمام عظمة الله لا جبارًا متكبرًا.

العلم بلا زهدٍ هو جرحٌ نازفٌ في خاصرة الحضارة وهو الآفة التي تُخفي بريقها في أول الأمر ثم تُبدي سُمّها في عاقبة المطاف إذ العلم إذا تجرد عن الزهد غدا شهوةً مموهة، وزينةً عقلية يُخيل إلى أصحابها أنّها رفعةٌ، وهي في حقيقتها مزلقةٌ إلى مهاوي الطغيان فالزهد ليس تنكّرًا لنعمةٍ ولا انصرافًا عن عقلٍ بل هو سياجٌ يحفظ للعلم هيبته ويقيه غوائل التمرّد على مقاصده فإذا خلا العلم من الزهد، صار كالسيف في يد السفيه يقطع ولا يهدي، يهدم ولا يبني ومن ثمّ قامت حضاراتٌ عظامٌ على أُسسٍ من المعرفة، ولكنها إذ تنكبت عن روح الزهد، غدت صروحها أفرانًا تصهر الإنسان في أتون الاستهلاك، وأبراجًا عالية تُسقط القيم في هوّة السقوط.

العلم بلا زهد هو خمرٌ يُسكر العقل فلا يفيق إلى رشده، بل يظلُّ يلهث وراء الجديد المجرّد من الغاية، ويعبد الأرقام والمخترعات كما يعبد العابد صنمه القديم إنّه علمٌ منزوع الروح، مؤسسٌ على أنانيّة العقل لا على قداسة المعنى وما الحضارة الحديثة – وقد ملأت الأرض صخبًا – إلّا شاهدًا على أنّ المعارف إذا فقدت كابح الزهد، فإنها تُحوِّل الإنسان من خليفةٍ إلى عبد، ومن عابدٍ إلى مستعبَد.

ولقد كان أجداد العرب، في جاهليتهم، أهل فصاحةٍ وعزيمة، لكنهم لم يعرفوا للعلم معنىً كاملًا حتى اقترن بوحي السماء؛ فلما جاء الإسلام وامتزجت المعرفة بالزهد، غدت الكلمة نورًا، والعلم هاديًا، والحضارة صالحةً للقلوب قبل الأبنية واليوم نرى العلم قد انقطع عن تلك الجذور، فصار مشاعًا في الأسواق، تباع فيه الحقائق كما تباع السلع، ويُقاس فيه التفوق بما يملكه المرء من أدوات، لا بما يحمله من ورعٍ ورجاحة عقل.

إنّ الحضارة بلا زهدٍ كالجسد بلا روح؛ تتحرك آليًّا، تزدحم بالشهوات، لكنّها خاوية في صميمها وإنّ أعظم نكبة للإنسان أن يظن أنّ العلم بذاته غاية، في حين أنّه وسيلةٌ محضة فإذا غاب الزهد عن صاحبه، لم يبقَ للعلم إلّا طغيان التسلط: في السياسة سلاحًا، وفي الاقتصاد وحشًا، وفي الأخلاق خواءً.

فالخطر كل الخطر أن يُرفع العلم على عرشٍ أُفرغ من الزهد؛ إذ عندئذٍ تتهاوى الحضارة في شَرَك الترف المادي، وتنقلب إلى كابوسٍ يطحن أبناءها، وتغدو مكتباتها مقابرَ، ومصانعها سجونًا، ومختبراتها أرحامًا لأدوات الهلاك فالزهد روح العلم، وبدونه لا يكون العلم إلا صنمًا جديدًا تتعبّد له الحضارة حتى يهلكها.

الفصل السادس: الزهد بلا علم – آفة الروح

الزهد بلا علم قفر بلا غيث وظل بلا فيء وروح بلا عقل يهدي هو تصوف موهوم وتجاف معدوم الأساس إذ يلبس على صاحبه ثوب القدسية وهو في جوهره سربال الوهمية فإن الزاهد إذا خلا عن نور العلم غدا كالناسك في صومعته يصلي للشبهة ويسبح للوهم ويعبد الفراغ بغير وجهة فالزهد بلا علم يجر على الروح آفة ويسوق القلب إلى غربة في المسلك إذ لا ميزان يزن ولا برهان يمحص وما أعظم خطر حال تزهد فيها النفوس عن طيبات أباحها الحق ويحرم فيها الجمال الذي هو آية من

آياته بدعوى الخشونة والقسوة لا ببرهان ولا بسعة فهم هو زهد يتوهم أن الربانية في التجويع لا في التعقيل وفي الخشونة لا في التزكية وفي هجر الخلق لا في عمارتهم فإذا انفصل الزهد عن العلم صار هروبا لا ارتقاء وغشاوة لا بصيرة وانكفاء على النفس لا انفتاحا على السماء.

وكم من سالك قد عميت عليه السبل حين اتخذ الزهد دينا بلا علم فصار يحرم ما أحل الله ويحرف في المعاني ويخلط بين السكينة والبلادة وبين التواضع والمذلة وبين الفقر والمهانة إنه زهد يميت القلب وهو يحسب أنه يحييه ويطفئ النور وهو يظن أنه يجليه.

الزهد إذا تجرد عن علم كان كالميزان المكسور يميل كفة الباطل وهو يحسب أنه يقيم العدل وكالمرآة الصدئة تشوه صورة الحقيقة وهي تحسب أنها تجلي الوجه بل هو آفة الروح التي تزين لأصحابها أنهم بلغوا القدس وهم لم يبرحوا وحل الغلط ولقد رأينا في تاريخ الأمم أن الزهد إذا لم تصححه معرفة أورث التطرف والجمود وأخرج أجيالا من السالكين لا علماء ولا عمار بل قوما يزهدون في العقول كما يزهدون في الدنيا فيغلقون أبواب الحكمة ويفتحون أبواب الوهم.
الزهد بغير علم ليس سموا بل سقوط وليس نقاء بل فتور وليس تواضعا بل عجز إنه آفة الروح التي تتزين بصورة الخلاص وهي في باطنها قيد من الوهم ورق من الجهل وضلال يغري صاحبه بأنه ولي وما هو إلا غريب عن الحقيقة بعيد عن السبيل فالعلم روح الزهد والزهد جسد العلم فإذا تفرقا صار العلم طغيانا والزهد خسرانا.

إنّ الزهد في حقيقته مرآة القلب المصفّى وسراج الروح المنيرة فإذا انفصل عن العلم صار جفاءً وإذا استقلّ عن البصيرة صار عبئًا ثقيلًا يثقل النفس ويمحقها

عن صراط الحق فالزهد بلا علم ليس فطنةً ولا حكمة ولا صيانةً للنفس بل هو آفة الروح وخطرٌ يربط القلب بأوهام الباطل ويصدّ السالك عن الحقائق.

ماهية الزهد بلا علم

الزهد بلا علم هو انصراف عن المظاهر دون بصيرة وابتعاد عن المتاع دون معرفة حقيقته وتحريمٌ على النفس ما أحلّه الله بلا فهم وانغماسٌ في الفراغ الروحي فالزاهد بلا علم يشبه النهر الجاري في الصحراء الجرداء ماؤه كثير لكنه لا يُسقي شيئًا ويمضي دون طائل يُرهق من حوله دون أن يثمر خيرًا ويضلّ صاحبه إلى الهلاك إن أوهمه قلبه أنه على الهدى إنّ الإنسان إذا زهد بلا علم فإن قلبه قد يُمسك بالمظاهر ويظنها حرامًا أو باطلة وقد يُغر بالتمسّك بما لم يُوجّه الله إليه فيتخذ من الزهد وسيلة للكبرياء أو للتفرّد على الناس أو لادعاء الفضيلة دون أصلٍ لها.

أثر الزهد بلا علم على النفس

- تعمية البصيرة :فالزهد بلا علم يُخرس العقل ويعمي القلب عن إدراك الحقائق فيتوه المرء بين الظنون والأوهام وينحرف عن سبيل الله بغير شعور.
- نشوء الرياء والخوف :إذ يتخذ الزاهد لنفسه ترفّعًا على عباد الله أو يعتقد أن الانقطاع عن الدنيا سببٌ للقداسة بينما هو خالٍ من بصيرة.
- خطر الانحراف الأخلاقي :لأن الزهد بلا علم قد يقود صاحبه إلى تقويم خاطئ للمعايير فيخلط بين الحلال والحرام وبين المقبول والمذموم فيظن أن ترك المتاع غاية بينما غايته الفهم الصحيح.

آفة الزهد بلا علم في ضوء القرآن

القرآن ينهى عن كل زهد بلا علم إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذُبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فالزهد بلا علم قد يكون سببًا للافترا على الله إذ يظن صاحبه أنه زاهد في حق بينما يغفل عن الواجبات أو يتجاوز الحدود أو يحرّم ما أحلّ الله.

الفرق بين الزهد بالعلم والزهد بلا علم

1. الزهد بالعلم :هو زهَد واعٍ مبني على إدراك حقيقته وعلم بالحق والباطل ووعي بالمكاسب والمصالح فيه توازن بين الدنيا والآخرة وترتقي النفس فيه بالعلم والتقوى.
2. الزهد بلا علم :هو زهَد أعمى يلهو بالظواهر ويغرق في الفراغ ويصبح آفةً للروح وسجنًا للذات وكأن الإنسان ترك العبودية لله واعتقد أنه زاهد وهو في الحقيقة أسير الأوهام.

نماذج التحذير من الزهد بلا علم

وردت قصصٌ في القرآن والسنّة تحذر من الزهد بلا بصيرة:

- من اعتزلوا مجتمعهم أو جمعوا أموالهم للتقوى الظاهرية فقط فافتقدوا العلم بفهم الدين فانقلبت أعمالهم حجةً عليهم لا لهم.
- كما تحذّر السنة من الغلوّ في الزهد الذي لم يقترن بالعلم فالمبالغة في الانقطاع عن الحياة والعمل دون فهم قد تؤدي إلى الابتداع أو الحسد أو الرياء أو الخطر على النفس والمجتمع.

علاج آفة الزهد بلا علم

- التحصن بالعلم الشرعي :فهم الأحكام معرفة مقاصد الشريعة إدراك حكمة الله في الحلال والحرام.
- ربط الزهد بالنية الصافية :التأكد أن الزهد في سبيل الله لا للتفرّد أو الرياء.
- العمل بالعلم :حتى يتحوّل الزهد من مجرد موقف خارجي إلى سلوك داخلي يزكي الروح ويطهر النفس من الغرور والأوهام.

الخاتمة

فالزهد بلا علم آفة الروح الكبرى وهو يفضي إلى الضلال والخطر على النفس والآخرين ويهدم مقصد العبودية الذي خُلقت له الروح أما الزهد بالعلم فهو سمو النفس وسمو القلب وسمو الفكر وبه ترتقي الروح وتزهو الحياة ويصل العبد إلى ما أراد الله من عبادته :القرب منه والاطمئنان إلى حكمه والطمأنينة في الآخرة الزهد الحقيقي لا يُفهم إلا بالعلم والرحمة تتحقق بالمعرفة والسكينة باليقين ومن أراد النجاة في الدنيا والآخرة فليجمع بينهما ليكون قلبه نقيًا وروحه حرة وعمله صالحًا وعلمه نورًا يهدي به السالكين كما أنّ العلم بلا زهد خطر فإن الزهد بلا علم انحراف إذ قد يتحوّل إلى رهبانية مبتدعة أو عزلة عقيمة أو خرافة باسم الورع الزهد الحق لا يعادي العلم بل يفتحه على أفق أرحب؛ لأنه يطهّر القلب من هوى النفس فيصبح العقل أصفى في تلقي الحقائق.

الفصل السابع: العلم والزهد في بناء الإنسان الكامل

الحمد لله الذي أخرج من ظلمات الجهل أنوار العلم وغرس في قلوب أوليائه أشجار الزهد فكان بهما كمال الإنسان وارتقاؤه وصيرورته مرآةً تنعكس فيها أنوار الحقائق الإلهية ومهاداً ينطوي على أسرار الخلق الربانية وأشهد أن لا إله إلا الله الذي قرن

العلم بالهدى والزهد بالتقوى وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله جمع في شخصه بين فقه الشريعة ورقة الزهد فصار للوجود قسطاساً وللنفوس قبساً وللأرواح أنموذجاً.

الإنسان الكامل بين مدار العلم وأفق الزهد

إنّ الإنسان الكامل هو الذي ارتقى من حضيض الطبيعة إلى أوج الحقيقة فجمع في ذاته سراج العقل وضياء الروح ولم يقف عند حدود الحسّ ولا انغلق في دوائر الشهوة بل جاوزها إلى فضاء أرحب حيث تتناغم العلوم مع الأذواق وتتمازج المعارف مع المكاشفات والعلم وحده. إذا عُري من الزهد. قد يُفضي إلى كبرياءٍ يُعمي ويُضلّ والزهد وحده . إذا انفصل عن العلم . قد يُثمر جهالةً مُظلِمة فلا يتحقق الكمال الإنساني إلا بالميزان الدقيق بينهما إذ هما جناحان يطير بهما القلب إلى علياء الحقيقة.

العلم بوصلة العقل والزهد بوصلة القلب

العلم يُهندس عقل الإنسان ويُقوِّم مداركه والزهد يُهذِّب قلبه ويُطهّر سرائره وإذا كان العقل أداةً لإدراك المعقولات فإن القلب أداةٌ لتلقّي الإشراقات وبينهما تآلفٌ لا ينفك: فالعقل بلا زهد يصبح قاسياً متكبراً والقلب بلا علم يصير هائماً مضطرباً فالإنسان الكامل إنما هو اجتماع البصيرة الفكرية مع النزاهة الوجدانية فلا يكتمل إلا بهما ولا يستقيم إلا بتلاحمهما.

بين العلم والزهد رباط السرّ ووشيجة التكامل

الزهد هو فراغ القلب مما سوى الله والعلم هو امتلاء العقل بما دلّ على الله فإذا اجتمع الفراغ والامتلاء تجلّى الكمال إذ الزاهد العالم لا يزهد عن جهل ولا يطلب

العلم للدنيا بل ينظر إلى المعارف كأنها مرايا تعكس جمال الخالق وينظر إلى الدنيا كأنها ظلّ زائل لا يُغني ولا يبقي وهكذا يصبح الإنسان الكامل كائنًا تتوازن فيه القوى: قوة الفكر قوة الروح قوة الإرادة فلا يطغى جانب على آخر ولا يتنافر نور على نور.

العلم والزهد في جدلية البناء الإنساني

إنّ العلم يمدّ الإنسان بقدرةٍ على تمييز الحقائق والزهد يمدّه بقدرةٍ على تمييز القيم فبينما ينقّب العلم في أسرار الوجود ينقّب الزهد في أسرار النفس وبينما يُقيم العلم الحجة على العقل يُقيم الزهد الحجة على القلب والإنسان الكامل لا يكون عالماً بارعاً فحسب ولا زاهداً منعزلاً فحسب بل هو مركّب من العقل المفكّر والروح المتطهّرة فيتولّد من اجتماعهما إنسان ربانيّ يحمل في كيانه صورةً من الحكمة الكونية.

الإنسان الكامل مرآة الجمع بين العقل والروح

الإنسان الكامل ليس كائناً مثاليّاً هائماً في سماء الخيال بل هو حقيقة تتجسّد فيمن جمع العلم والزهد في ميزان واحد فهو الذي يعرف أسرار الشريعة ويزهد فيما يقطع صلته بالحقيقة يعمل للدنيا كأنّه يعيش أبداً ويزهد عنها كأنّه يموت غداً فبالعلم يكتشف مقاصد الخلق وبالزهد ينقطع عمّا يُفسد تلك المقاصد ومن ثمّ يكون مظهراً جامعاً للعلم النافع والزهد الصادق حتى يصير عقله سراجاً يهدي وقلبه بستاناً يُثمر.

صور قرآنية في البناء المزدوج

لقد ضرب القرآن أمثلةً للعلم المقترن بالزهد فجعل يوسف عليه السلام جامعاً بين حكمة التدبير وزهد النفس وجعل سليمان عليه السلام حاكماً عالماً لم تفتنه زخارف الملك وجعل محمداً ﷺ قدوةً عظمى: علماً في العقل وزهداً في القلب فكان الإنسان الكامل الذي اجتمعت فيه خصائص الكمال البشري وصار ميزاناً للوجود كله.

معنى الكمال

فالعلم وحده إذا تجرّد من الزهد قد يُنتج إنساناً عارفاً بالحقائق الظاهرة غافلاً عن الغايات الباطنة والزهد وحده إذا تجرد من العلم قد يُنتج إنساناً طاهراً في المظهر خاوياً في الجوهر لكن الإنسان الفطن هو من جمع بينهما: عقلٌ يعرف وقلبٌ يزهد ونفسٌ تسمو وروحٌ تشرق.

العالم الحق في الفكر الإسلامي هو الذي يجمع بين نور العلم وصفاء الزهد فيصبح عالِمًا زاهدًا أو زاهدًا عالِمًا مثل الإمام الغزالي الذي جمع بين علوم العقل والشرع ثم زهد في زخرف الدنيا فصار علمه حكمة نافذة
وهذا النموذج هو الذي تحتاجه الأمة: عالم لا يبيع علمه للدنيا وزاهد لا يهرب من عمارتها بل يوجّهها نحو الله.

الخاتمة

إنّ العلم والزهد ليسا خصمين يتجاذبان روح الإنسان بل هما قوتان متآلفتان إذا اجتمعتا أخرجتا من الوجود إنساناً كاملاً يوازن بين مقتضيات الدنيا ومطالب الآخرة بين طموحات العقل وإشراقات الروح فالإنسان الكامل هو الذي جعل من

العلم نور العقل ومن الزهد طهر القلب فصار بناؤه متيناً وصورته جامعة وكيانه شاهداً على حكمة الخالق في صياغة الوجود.

الفصل الثامن: العلاقة التفاعلية

- العلم يوسّع آفاق الفكر.
- الزهد يطهّر نية الفكر.
- العلم يمدّ الإنسان بأدوات القوة.
- الزهد يذكّره بضعفه وفقره

ومن هنا يلتقيان في صناعة شخصية متوازنة تُعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها.

الفصل التاسع: ثمار الجمع بين العلم والزهد

1. الحكمة :وهي أرقى ثمار الجمع بينهما إذ يصبح العلم حكيمًا والزهد بصيرًا.
2. التواضع :فلا يتكبّر العالم بما أوتي لأنه زاهد في زخارف الثناء والجاه.
3. الصدق :لأن الزهد يصفي النية والعلم يصحح الطريق.
4. الحرية :لأن من زهد في الدنيا لم يُستعبد بعلمه لخدمة مصالحها.

الفصل العاشر: الحاجة المعاصرة

الحمد لله الذي خلق الإنسان خليفة في الأرض وجعله عالماً مدركاً للحقائق وزاهداً متجهًا إلى رضوانه فجمع بين العلم الذي ينير العقل والزهد الذي يطهّر القلب فكان الإنسان العالم الذي يصنع التاريخ ويضيء الطريق للخلق وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جمع بين العلم والعمل وبين الزهد

في الدنيا والهمة في الدعوة فكان لنا أعظم مثل يُحتذى به إن أزمتنا اليوم ليست في قلة العلماء ولا في ندرة الزهاد بل في افتراق العلم عن الزهد وانشقاق الجناحين اللذين خلقهما الله لرفع الإنسان عن الهبوط فغرق أحدهما في السياسة والمناصب وانحصر الآخر في الزوايا والانعزال عن حركة الحياة.

غرق العلماء في السياسة والمناصب

لقد أصبح كثير من العلماء اليوم . ولو كانوا حاملين للمعرفة والفقه . رهائن للدنيا أسرى للسلطان وموظفين لدى الأهواء لم يعد العلم عندهم نوراً يقود القلوب إلى الله بل صار أداة للهيمنة والرياء وصوتاً يُستغل في المناصب والمكاسب فالعلم الذي خُلق ليكون دليلًا وميزاناً صار أحياناً وسيلة للمتاجرة بالمعرفة وللتباهي بالجاه ولامتثال للحقائق الإلهية أمثلة ذلك كثيرة: علماء يطغى عليهم طموح المناصب يتنازلون عن قسط من حياة العلم ويزينون لأنفسهم ما لا يليق بالعلم فيصبح وجودهم شاهدًا على تلاشي غاية العلم وتحويله إلى أداة للحياة الدنيوية لا سراجًا يضيء الطريق للإنسانية.

تقوقع الزهاد في الزوايا

أما الزهاد فقد انغلقوا في الزوايا وتحجّروا في الخلّوات غافلين عن حركة الحياة ومنغلقين على أنفسهم يظنون أن الانقطاع عن الناس والانغلاق عن الأحداث هو زهدٌ كامل فصار الزهد عندهم انعزالًا بلا بصيرة واعتزالًا بلا علم لا يحرك الفكر ولا يُنير العقل ولا يُطوّر المجتمعات.

فالزهد الحقيقي كما أراده الله للأنبياء والعباد الصالحين لم يكن فراراً من الحياة بل تحكمًا في تعلق القلب بما زائل وانخلاعًا عن زخرف الدنيا مع الفهم والعمل

والتفاعل مع واقعها والزهد بلا علم يشبه سفينة بلا دفة تجري في البحر هائمة قد تغرق بلا هدف ولا إنقاذ.

الانشقاق بين جناحي الإنسان

الإنسان يحتاج إلى جناحين: جناح العقل والعلم وجناح القلب والزهد فإذا انفصل أحدهما صار ناقصاً:

- العلم بلا زهد :يجعل صاحبه كالعالم بالمحاسن والحقائق لكنه متكبر متسلط غارق في السلطة تجرّده الحياة السياسية والجاهلية عن جوهر رسالته.
- الزهد بلا علم :يجعل صاحبه كالناسك في العزلة صامتًا عن الحقائق مغلقاً على ذاته عاجزاً عن التغيير والإصلاح متروكًا للأوهام والانزواء العقيم.

إن أزمة العصر إذن ليست في قلة العلم ولا في قلة الزهد بل في فقدان التوازن بينهما وفي انفصال الجناحين عن بعضهما فتضعف القدرة على صناعة الإنسان الكامل.

آثار الانفصال على المجتمع

1. ضعف القيادة الروحية والسياسية :فالعلماء المهووسون بالمناصب لا يملكون بصيرة الزهد والزهاد المنعزلون لا يملكون خبرة العلم فتصبح الأمة بلا قيادة حقيقية وجسدها بلا روح.
2. تفشي الرياء والغرور :فالعلماء يطغى عليهم الطموح والزهاد يصيرون أساطين للانعزال فلا يُرشدون ولا يُنيرون ولا يحمي أحدهم الآخر.

3. تراجع القيم الحقيقية :إذ تُستبدل المعرفة بالسطحية والتقوى بالمظاهر فتصبح المجتمعات تابعةً للنفوذ والمناصب لا للحق والفضيلة.

الحلول المقترحة

- إعادة الربط بين العلم والزهد :أن يكون العالم زاهداً والزاهد عالماً فيتحد العقل مع القلب والفقه مع الورع والعمل مع الصلاح.
- إحياء روح العلم النافع والزهد الفاعل :بحيث يتحرك الإنسان بين المعرفة والعمل بين التأمل والتفاعل بين القوة والرحمة فيصبح قائدًا وناصحًا ومُصلحًا.
- القدوة العملية :كالأنبياء والصالحين الذين جمعوا بين العلم والزهد فكانت حياتهم مدرسة متكاملة في الفهم والتقوى والتطبيق.

إن أزمتنا اليوم ليست في قلة العلماء ولا قلة الزهاد بل في افتراق العلم عن الزهد وفي انفصال الجناحين اللذين خلقهما الله لرفع الإنسان عن الهبوط فإذا اجتمع العالم الزاهد اجتمعت الحكمة والورع وصار الإنسان الكامل قادرًا على قيادة المجتمع وإصلاح النفوس ورفع الأمة من الظلمات إلى النور.

فالحقائق التي كشفها التاريخ القرآني والسيرة النبوية تدلنا على أن الإنسان الكامل هو من جمع بين سراج العلم ونور الزهد فلا يضلّ العقل بلا قلب ولا يخبو القلب بلا علم ويصير قدوةً لكل زمان ومكان.

الخلاصة:

إنّ العلم والزهد ركنان متكاملان:

- العلم يكشف الحقيقة.

- الزهد يحمي القلب من فتنتها.
- العلم يمنح القوة.
- الزهد يمنح التوازن.

وبهما معًا يتحقق قول الله تعالى :﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فالزهد أساس التقوى والعلم ثمرة من ثمارها وإذا أردنا نهضة متوازنة لا تنحرف بالمادية ولا بالانعزال فعلينا أن نربي أجيالًا من العلماء الزهاد الذين يجمعون بين العقل الراجح والقلب السليم.

الباب الخامس : العلم وتقوى الله

إنّ أعظم ما أوصى الله به عباده وأعلاهم شأنًا عنده هو التقوى إذ جعلها ميزان الكرامة ومناط القبول وسبيل النجاة فقال جلّ شأنه :﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ والتقوى ليست مجرّد شعور داخلي بالورع بل هي حالة وجودية عميقة تشمل الفكر والسلوك وتوجّه الإنسان في جميع أبعاده؛ فهي حضور دائم لله في القلب وانضباط للجوارح وصفاء للفكر واستقامة في السلوك.

غير أنّ التقوى لا تنفصل عن العلم بل إنّ بينهما تلازمًا جوهريًا؛ إذ لا تتحقّق التقوى إلا بمعرفة ولا يثمر العلم إلا إذا أضاءته خشية الله ومن هنا نفهم قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي أن العلم الحق هو الذي يورث الخشية والخشية عين التقوى.

الفصل الأول: معنى التقوى وأصولها

التقوى في أصل اللغة مأخوذة من "الوقاية" وهي اتخاذ ما يحول بين المرء وبين ما يخشاه وأمّا في الاصطلاح الشرعي فهي :امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه

ظاهرًا وباطنًالكن التقوى ليست مجرد اجتناب للمحرّمات بل هي وعي إيماني متكامل يحرّك الإنسان في كل تفاصيل حياته فتجعل قلبه متيقظًا لعظمة الله وعقله متفكرًا في آياته وروحه متصلة بمصدرها الأعلى وقد اختلفت كلمات السلف في تعريفها فمنهم من قال :*التقوى أن يُطاع الله فلا يُعصى ويُذكر فلا يُنسى ويُشكر فلا يُكفر* ومنهم من شبّهها بالسير في طريق مليء بالشوك حيث لا ينجو الماشي إلا إذا رفع ثوبه وحذر مواضع قدميه الإخلاص يعدُّ أساسًا من أسس التقوى لأن العمل بلا إخلاص لا يُعد تقوى فالمتقي حقًا هو من يتقي الله بإخلاص إنّ الإخلاص جوهرٌ مصون وكنزٌ مكنون لا يُنال إلا بعد صقل القلب من شوائب الرياء وتطهير السرّ من أدران الأهواء فإنّ الأعمال وإن تزخرفت صورها وتزخرف ظاهرها لا تزن عند ربّ السماوات جناح بعوضة ما لم تُبنَ على إخلاصٍ محضٍ وصفاءٍ صرف خالٍ من ملاحظة الخلق ومجرّدٍ عن التماس المنزلة عند الناس.

إنّ العبد إذا امّحى من قلبه التفاتُه إلى حظوظ نفسه وأعرض عن تطلّب المحامد من غيره وصار عمله خالصًا لوجه مولاه عندئذٍ يصير فعله . قلّ أو كثر . في ميزان الحق أثقل من الجبال الرواسي وأبقى من الذكر الجاري ولولا الإخلاص لكان العمل قشورًا خاوية كسرابٍ يحسبه الظمآن ماءً فإذا جاءه لم يجده شيئًاوما أحوج العامل في ميادين الحياة سواءً في شعائر الدين أو صنائع الدنيا أن يفتّش دخائل سريرته فإن وجد فيها شائبة طلب السمعة أو نَفَس الرياء فليعلم أنّه قد باع جوهرةً بثمن بخس وأنّه قد أضاع عمرًا في ظلٍّ زائل الإخلاص هو النور الذي يُشرِق في باطن القلب فينير الجوارح وهو المِيزان الذي يُرجّح الأعمال في سوق الآخرة وهو الحجاب الذي يحول بين العبد وبين غوائل الشيطان.

ولولا الإخلاص لانقلبت الأعمال مهزلة ولصار الجدّ هزؤًا إذ إنّ الغاية حينئذٍ تصير الناسَ لا الله والطالب يصير الدنيا لا الآخرة فيغدو العمل جثة بلا روح وصورة بلا معنى وظاهرًا لا جوهر له فطوبى لمن صفت نيّته في خفاء سرّه وأصبح عمله سريرة بينه وبين ربّه لا يطّلع عليها أحد من الخلق فذاك الذي ارتقى في مدارج المخلَصين وذاك الذي بلغ رتبة الصدّيقين حيث تصير أعماله خالصة لوجه الحق لا تشوبها كدورة ولا يلحقها نقص.

يا من يبتغي رفعة العمل في مدارج الكمال اعلم أنّ الإخلاص ليس لفظاً يلوك به اللسان ولا صورةً يكتسي بها ظاهر الأركان بل هو سرٌّ إلهيٌّ مودَع في طوايا القلوب لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيشوّهه هو جوهر الحقائق ومعدن النجاة وميزانٌ تتكافأ به الأفعال فإن خَلَت الأعمال منه صارت هباءً منثوراً وإن امتزجت به صارت نوراً يسعى بين أيدي أصحابها الإخلاص هو أن يضمحلّ العامل في مشاهدة المولى حتى يغيب عن نظر الخلق ويستوي عنده مدح الناس وذمّهم فلا يلتفت إلى ثناء يرفعه ولا إلى قدح يضعه إذ قد استغرق سرّه في بحر المراقبة وذاب وجوده في مقام العبودية وما الإخلاص إلا صفاء السرّ من كدر الملاحظة وتنقية النيّة من عكر التزيّن للعيون.

فانظر. أيّدك الله. كيف ينقلب العمل الواحد باختلاف النيّة: فكم من دمعةٍ خرجت من عين صادق فكانت عند الله أعظم من جبال الطاعات وكم من قطرات دمٍ أُهريقَت في ساحات الوغى فما زادت صاحبها إلا بعداً إذ أراد بها رياءً وسمعة ومن أجل هذا قال العارفون: "ربَّ عمل صغير تعظّمه النيّة وربَّ عمل عظيم تحقره الرياء."

وإنّما كان الإخلاص أشرف المقامات لأنّه سرٌّ بين العبد وربّه لا يطّلع عليه سوى علاّم الغيوب فمن رام به الدنيا فقد خاب ومن قصد به وجه الحق فقد أصاب إذ الأعمال بصورِها أشباحٌ خاوية وأرواحها مقاصدها فمن صحّت مقاصده أُثيب على قليل عمله ومن فسد باطنه حُرِم ثمرة سعيه وإن أفنى الأعمار.

فليكن العبدُ في عمله كالشجرة في أصلها لا تبغي ثناء الناس لثمرها بل تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها ولا تُبالي إن مرّ بها المادح أو الذامّ إذ غايتها أن تؤدي ما أُقيمت له كذلك المخلِص يعمل ولا يلتفت يبذل ولا يطلب جزاءً إلا وجه مولاه فيكون كالنجم الثاقب يهتدي به أهل الأرض وهو غافل عن ذاته.

إنّ الإخلاص في العمل مقامٌ عزيز لا يناله ذو قلبٍ معلول بأشباح الأهواء ولا يبلغه من استعبده سلطان الأغراض؛ إذ هو تجريد الإرادة عن شوائب التلوين وإخراج الفعل من حيز الاعتداد بالنفس إلى فضاء الفناء في حضرة الحق فالعمل. ما لم ينسلخ عن علائق الالتفات إلى مراءاة الخلق. يظلّ قشرةً خاوية بل ظلّاً يتراءى ولا حقيقة له كصورٍ ترتسم على سطح المرآة ثم تنمحي بانمحاء الناظر.

وإنما يُعرف صدق النية بامّحاء العبد عن رؤية ذاته حتى يصير فعله جارياً كجريان الدم في العروق لا يلتفت إليه ولا يزهو به؛ فحينئذٍ يغدو العمل في ميزان الغيب أثقل من السموات وإن خفّ على الحسّ وأبقى من الأثر وإن توارى عن الأبصار فالذي يعمل طلباً لمحامد الناس قد أودع جهده في خزائن الفناء والذي يعمل ملاحظاً وجه مولاه قد استظلّ بأفياء البقاء فلا سواء بين من جعل غايته رضا الخلق وبين من صهر غرضه في أتون الحق.

ولو تأملت لعلمت أنّ الرياء مرضٌ يندسّ في أعمق الطوايا فيجعل العمل مرآةً مشروخة تعكس صورة مشوّهة بينما الإخلاص نورٌ يشرق في القلب فيسري إلى

الجوارح حتى يغدو السرّ والعلن سواءً والظاهر والباطن سواءً فلا اختلاف بين سعيٍ يُرى وسعيٍ يُخفى لأنّ العمدة في كليهما قصدٌ مفرد لا يزاحمه قصد آخر.

فمن رام الإخلاص فليطرح عن قلبه أثقال الملاحظة وليخلع عن إرادته رداء التفاتٍ إلى ثناءٍ أو رهبةٍ من ذمّ وليتجرّد من محبة الصيت كما يتجرّد السيف من غمده حتى لا يبقى في باطنه إلا قصدٌ خالص ينساب في مجاري الأعمال كما ينساب الجوهر في التاج؛ فإن صفا الجوهر أشرق التاج وإن تكدّر غدا خرزاً لا قيمة له هكذا يكون الإخلاص: سراً لا يُمسك بزمامه إلا من عرف كيف يذيب وجوده في وجود مولاه فإذا تحقّق بذلك صار عمله وإن صغر جبلاً لا تهزّه الرياح وصار قوله وإن قلّ بحراً لا تنزفه الدلاء.

إنّ حقيقة الإخلاص لُبابُ اللُّباب ومعدنُ السرّ المصون لا ينفكّ عن كونه انمحاءً للذات في إشراق المقصود الأعلى بحيث تتلاشى الرسوم وتضمحلّ العلل فلا يبقى للعمل تعيّنٌ من حيث كونه فعلاً للعامل بل يغدو وجوده مندرجاً في جريان الإرادة الإلهيّة التي لا يشوبها غرض ولا يمازجها هوى ومن لم يتطهّر سرّه من كدورات الملاحظة ظلّ أسير الأشكال يُساق إلى صور الأعمال سوقَ الأنعام إلى المراعي غير شاعر أنّه في حظيرة الغرور يُقلّب بصره بين ظلال لا تثبت ويحسب أنّها جوهر وهي سراب.

الإخلاص في حقيقته ليس إزالةً للرياء فحسب بل هو اقتلاع لجذور الأنانية من أصلها حتى ينقلب العبد محواً محضاً لا يعي من ذاته إلا كونها مرآةً تنعكس عليها أنوار المقاصد الربّانيّة وحينئذٍ لا يعود للعمل وزنٌ من حيث صورته ولا للنيّة قدرٌ من حيث مجرّد التلفّظ بها بل العمدة على انغراس القصد في باطنٍ تجرّد عن ملاحظة السوى وانصهار الإرادة في بوتقة التوحيد بحيث تصير الحركة والسكون

سواءً والسرّ والعلن سواءً والوجود والعدم سواءً إذ الكلّ في قبضة الواحد القهّار ومن لم يذق هذا المقام بقي يلوّح بألفاظ الإخلاص كما يلوّح الغريق بيديه يحسب أنّه ممسك بشيء وما هو إلا خبط عشواء في ليل موحش فإنّ العارف إذا استوى على عتبة هذا السرّ استحال فعله عين شهوده وغدا سعيه ترجمان حضوره فلا يطلب ثمناً ولا يقيم وزناً لمدح أو ذمّ إذ قد غاب عن الخلق بوجهٍ وحضر مع الحق بوجهٍ آخر بل بوجهٍ واحد لا يتجزّأ.

فالإخلاص إذن ليس مقاماً يُدرك بالوصف بل حالٌ يشرق على القلب إشراق الفجر على صفحة الأفق لا يملك دليلاً عليه إلا من شَهِد نوره ولا يقدر على تبيينه إلا من اكتوى بلهيبه ومن ظنّ أنّه يُنال بمجرد القصد الظاهر فقد أخطأ الطريق فإنّه مقام تتكسّر عنده عوارض العقول وتذوب فيه رسوم العبارات فلا يبقى للعامل إلا فناؤه في المعمول له ولا للفاعل إلا زواله في فعل من لا فعل إلا فعل.

الفصل الثاني: العلم وسُموّ وظيفته

العلم في المفهوم القرآني ليس مجرد تراكم للمعلومات بل هو بصيرة نافذة تقود إلى الحق فكم من أناس نالوا علوم الدنيا لكنهم لم ينالوا الهداية لأنهم فقدوا عنصر التقوى ولهذا يقرر القرآن أنّ العلم المجرّد لا يكفي بل قد يتحوّل إلى حجاب إذا لم يصحبه وازع إيماني.

وقد رفع الله مكانة العلم وأهله فقال :﴿*قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ*﴾ لكن هذه المساواة ليست على أساس المعرفة النظرية بل على أساس العلم الذي يقود إلى العمل الصالح والخشية ومن هنا جاء قوله تعالى :﴿*إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ*﴾.

الفصل الثالث: العلاقة الجدلية بين التقوى والعلم

إذا كان العلم يفتح البصيرة على حقائق الكون فإنّ التقوى تفتح القلب على نور الهداية ولا يثمر أحدهما دون الآخر.

- العلم بلا تقوى قد يصير وبالًا إذ يجعل الإنسان متكبّرًا بعلومه غافلًا عن خالقه فيتحوّل العلم إلى وسيلة للسيطرة لا إلى طريق للحكمة.
- التقوى بلا علم قد تتحوّل إلى عاطفة عمياء تقود إلى الغلوّ أو التقليد من غير بصيرة ولا هداية راسخة.

فالقرآن جمع بينهما حين جعل الغاية من العلم هي الخشية :﴿*إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ*﴾ وجعل غاية التقوى هي التزكية المبصرة :﴿*وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ*﴾.

الفصل الرابع: التقوى أساس المنهج العلمي في الإسلام

الحمد لله الذي أرسى دعائم العلم على تقوى القلب وجعل منهج البحث والاستدلال محكّاً للروح قبل العقل وجعل لكل معرفة حدوداً تنتهي عند حدود الحق وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جمع في شخصه بين أعلى درجات العلم وأجلّ درجات الورع فكان لكل زمان قدوة ولكل باحث مرشدًا ونموذجًا للمنهج العلمي الراسخ في الإسلام إن العلم في الإسلام ليس مجرد تراكم معلومات ولا حِصّة من الحقائق المتناثرة بل هو مسعى متكامل يتقوّى بالقلب قبل العقل ويستند إلى التقوى قبل النظرية والتقوى هنا ليست خضوعًا تقليديًا للمظاهر ولا خوفًا شكليًا من العقاب بل هي ضبط النفس بالواجبات واتباع الحد الإلهي والحرص على صدق البحث وطمأنينة المبتغى فمن انفصل العلم عن التقوى صار بلا ضابط ومن انفصل القلب عن العقل صار بلا

منهج فالتقوى هي الأساس الذي يُثبّت منهج البحث ويصون نتائج المعرفة من الغلوّ والاختلال.

التقوى معيار الأخلاق البحثية

في المنهج الإسلامي التقوى ليست مجرد شعور داخلي بل معيار لتصحيح منهجية البحث الباحث المتقٍ يبتعد عن الغش ويصون البحث من التزييف ويتحقق من مصادره ويتجنب الميول والشهوات التي قد تزيغ به عن الطريق فالتقوى تمنح العلم ضابطه الأخلاقي وتضمن أن يكون البحث أداةً للنفع لا للضرر ومفتاحًا للحق لا للأوهام وسراجًا للنفس لا لأهوائها.

التقوى وقوة الملاحظة العلمية

التقوى تصقل النظر وتجعل الملاحظة دقيقة والتأمل أعمق وتفتح العقل على ما وراء الظاهر فالإنسان المتقي يرى الطبيعة والكون والخلق بعين واعية لا بعين متعصّبة للشهوات أو متأثرة بالمصالح الشخصية ومن هنا يصبح المنهج العلمي الإسلامي منهجًا كاملاً يجمع بين الدقة العقلية والانضباط الروحي بين الاستقراء والتحقق وبين الالتزام بالحدود الإلهية والحرص على الحقيقة.

التقوى وضبط النتائج العلمية

لا يكتفي المنهج الإسلامي بالبحث وحده بل يحرص على ضبط النتائج وفق الضوابط الشرعية والأخلاقية فالعلم بلا تقوى قد يقود إلى الانحراف والانحراف في النتائج يؤدي إلى الفساد والتقوى تمنع التحيز وتحمي الباحث من الغرور وتجعل النتائج وسيلة للهداية والرفعة لا أداة للسيطرة أو الاستغلال.

نماذج منهجية في التاريخ الإسلامي

لقد جسّد علماء الأمة هذه العلاقة بين العلم والتقوى:

- ابن سينا :الذي جمع بين العقل المتقد والفكر المستنير وبين الورع والتقوى فكان طبّه وفلسفته مرجعًا للأجيال ومثالاً على أن المنهج العلمي لا ينفصل عن الالتزام الأخلاقي.
- الخوارزمي :الذي ابتكر الجبر وطور الحساب بقيت أبحاثه متوازنة بين الدقة العلمية والالتزام بما أوجبه الله في سلوك الباحث.
- الرازي :الذي طبّق المنهجية العلمية في الطب والكيمياء وهو متجذر في الورع يوازن بين التجربة والفهم ويصون البحث من الغش والخطأ.

أثر الجمع بين التقوى والعلم على الفرد والمجتمع

1. الوعي الذاتي :الإنسان المتقي الباحث يُدرك حدوده ويعرف أن المعرفة وسيلة لا غاية وأن التقوى تحفظ قلبه من الغرور.
2. المنهجية الدقيقة :الضوابط الأخلاقية تجعل البحث أكثر مصداقية وتجعل النتائج نافعة وتمنع الفساد المعرفي.
3. الرفعة المجتمعية :العلماء المتقون يصنعون حضارة مستدامة ويبنون مجتمعًا واعيًا قادرًا على التمييز بين الصواب والخطأ والحلال والحرام والمفيد والضار.

الخاتمة

إنّ الباحث المسلم الحق لا يدخل معترك العلوم وهو مجرّد عقل بارد بل يدخل وهو عقل محروس بروح متّقية لذلك نجد أنّ الحضارة الإسلامية الكبرى لم تنشأ إلا من رحم التقوى فابن الهيثم والبيروني والخوارزمي وابن النفيس وغيرهم من

العلماء لم يكونوا مجرّد أصحاب معادلات ونظريات بل كانوا ذوي قلوب خاشعة تدفعهم إلى النظر في آيات الله الكونية كما تدفعهم إلى النظر في آياته القرآنية فالتقوى تمنع العالم من تحريف الحقيقة أو تسخير العلم للفساد ولولا التقوى لكان العلم سلاحًا مدمّرًا كما نرى اليوم في سباق التسلّح وتدمير البيئة واستعباد الشعوب إن التقوى هي الأساس الذي يُبنى عليه المنهج العلمي في الإسلام وهي العمود الذي يحفظ البحث من الانحراف والعقل من الغرور والنتائج من الفساد ومن انفصل العلم عن التقوى ضلّ عن الصراط المستقيم وانحرفت النتائج وفقد البحث صدقه ومصداقيته أما الجمع بينهما فهو الذي يجعل الإنسان باحثًا واعيًا ومجتمعًا متوازنًا وفكرًا مستنيرًا وصورةً حيّة لما أراده الله من الإنسان الكامل : عالماً متقيًا باحثًا ملتزمًا ومرشدًا في مجاله وحياته.

الفصل الخامس: التقوى والعلم في بناء الإنسان

إن بناء الإنسان لا يكتمل إلا بجمع العلم والتقوى فالعلم ينير العقل والتقوى تنير القلب وإذا انفصل أحدهما عن الآخر ضعفت الصورة الكاملة للإنسان وصار كجسد بلا روح أو بيت بلا أساس فالإنسان الذي يمتلك العلم بلا تقوى كالسفينة التي تبحر في البحر بلا بوصلة والإنسان الذي يمتلك التقوى بلا علم كالمصباح المنطفئ في الظلام فلا يرشد ولا يهتدي.

التقوى أصل البناء الروحي

التقوى هي حافظة الروح ومصون القلب فهي ما يرفع الإنسان فوق نزغات النفس وما يقيه من الانغماس في زخرف الدنيا وما يهيئه للارتقاء في سلم القرب من الله إنها شعاع خفي يضيء الباطن قبل الظاهر يجعل السلوك مستنيرًا

بالمبادئ والنية خالصةً لله والحياة متوازنة بين الواجب والمباح بين العمل والدعاء بين الدنيا والآخرة.

وقد جعل الله التقوى معياراً للفوز والنجاة فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالإنسان بالتقوى يصير ملكاً على نفسه متحرراً من أسره مسيطراً على نزعاته جامعاً بين الصبر والحلم واليقين والخشية.

العلم أساس البناء العقلي

أما العلم فهو سراج العقل وميزان الفهم وبصيرة الروح ومن دونه يظل الإنسان ضعيفاً معرضاً للأخطاء عاجزاً عن تمييز الصواب من الخطأ والحق من الباطل والخير من الشر فالعلوم النافعة تُخرج الإنسان من ظلمات الجهل إلى أنوار الحقيقة وتجعل قراراته قائمة على معرفة دقيقة وتحركاته مدروسة وأفعاله متسقة مع مقاصد الحياة العليا.

وكم من إنسان زاهِد في الدنيا لكنه جاهل فزاد جهله عزلة وغفلة وكم من عالم بلا تقوى فطغى بعلمه وضلّ عن الصراط المستقيم فمن أراد البناء الكامل للإنسان وجب أن يجمع بين سراج العلم ونور التقوى.

أثر الجمع بين العلم والتقوى على بناء الإنسان

1. توازن الشخصية :العقل يحكم والقلب يوجّه فلا غرور ولا فراغ ولا تضاد.
2. الحكمة في القرار :العلم يعطي البصيرة والتقوى تحمي من الانحراف.
3. الاستقامة في الحياة :الإنسان الكامل يعرف ما له وما عليه يعمل بما أمر الله ويبتعد عما نهاه ويعيش في دنيا وعملٍ متوازن.

4. قدوة للآخرين :يصبح الإنسان جامعاً للخير معلماً مصلحاً ومرشداً للأمة في الفكر والسلوك.

الإنسان المتّقي العالِم يجمع بين صفاء الضمير وصفاء الفكر فهو يعلم أن كل حقيقة يكتشفها في الكون ما هي إلا نافذة على عظمة الله وبذلك يصبح العلم عنده عبادة والتقوى عنده نورًا يزيد من فهمه فالعلم يعلّم الإنسان النظام والدقة والتقوى تعلّمه الرحمة والخشية والعلم يكشف له كيف يعمل الكون والتقوى تعلّمه لماذا وُجد الكون وبذلك يتحقّق التوازن بين العقل والروح فلا يضلّ ولا يطغى.

الخاتمة

إن بناء الإنسان الكامل لا يكون إلا بتلاقي العلم والتقوى فالعلوم بلا تقوى لا تُثمر والتقوى بلا علم لا تهدي والاجتماع بينهما هو سراج العقل ونور القلب ورفعة للروح وعزة للكيان وسمو للحياة فمن أراد الكمال فليجمع بين العلم الذي ينير والتقوى التي تحمي ليصير إنساناً متكاملاً في ذاته فاعلاً في مجتمعه وهاديًا في مجراه ومرشدًا في زمانه.

الفصل السادس: ثمار الجمع بين التقوى والعلم

إن ثمار الجمع بين التقوى والعلم ليست أمراً عابراً ولا حالة سطحية بل هي ثمار روحانية وفكرية وجسدية ونفسية واجتماعية تتجلّى في بناء الإنسان وصيانة النفس وهداية المجتمع وتحقيق الغاية من الخلق فمن جمع بين نور العلم ونور التقوى صار له في هذا العالم نوران: نور العقل ونور القلب فارتفعت روحه واتسعت بصيرته وازدهرت فكره وصار كائناً جامعاً لكل فضيلة منزهًا عن كل عيب.

نور البصيرة والفهم

قال تعالى :﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي نورًا يميّزون به بين الحق والباطل أولى الثمار ظهوراً هو نور البصيرة والفهم إذ يصبح الإنسان يعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ والحلال من الحرام ويستطيع تمييز ما يضر وما ينفع ويحلل الأمور بعقل راشد وقلب مطمئن فالعلم يمده بالمعرفة والتقوى تمنحه القدرة على استخدام هذه المعرفة في الصالح العام فتتحول المعلومات إلى حكمة والمعرفة إلى عمل والوعي إلى نور يضيء الطريق للآخرين.

طمأنينة القلب واستقرار النفس

الثمرة الثانية هي طمأنينة القلب واستقرار النفس إذ أن الجمع بين العلم والتقوى يحصن الإنسان من القلق والتردد ويجعله يعيش في سلام داخلي وراحة نفسية فلا يغرّه زخرف الدنيا ولا يثنيه عن الحقّ أهواء البشر فالعلم وحده بلا تقوى قد يثير القلق والتقوى وحدها بلا علم قد تغلق العقل على أوهام أما الجمع بينهما فينتج طمأنينة شاملة وروحاً متزنة وفكرًا واضحًا.

قوة الإرادة واتزان السلوك

الثمرة الثالثة هي قوة الإرادة واتزان السلوك إذ يصبح الإنسان قادراً على مقاومة النزوات والتحكم في الشهوات واتخاذ القرارات الصائبة وممارسة حياته بحكمة واعتدال العلم يرشده إلى الأسباب والنتائج والتقوى تمنحه القدرة على التزام الطريق الصحيح فتظهر شخصيته قوية وفاعلة ومرشدة ومؤثرة.

رفعة المجتمع وهداية الأمة

الثمرة الرابعة هي رفعة المجتمع وهداية الأمة إذ أن الإنسان الذي يجمع بين العلم والتقوى يصبح قدوةً ومعلماً ومرشداً فيعرف كيف يصلح نفسه قبل غيره وكيف يبني مجتمعه بأسس علمية وروحية متينة وكيف يربط بين المعرفة والتقوى في كل معاملة فينير الطريق للآخرين ويصنع نظامًا متوازناً بين العقل والقلب بين الحق والرحمة بين العمل والنية.

استدامة الكمال ودوام النجاح

الثمرة الخامسة هي استدامة الكمال ودوام النجاح فالإنسان الذي يجمع بين العلم والتقوى لا يزدهر مؤقتاً ولا ينجح لفترة محدودة بل يستمر في البناء الذاتي والارتقاء الروحي ويستطيع مواجهة كل تحديات الحياة بعزمٍ وصبرٍ وحكمة العلم يزوده بالمقومات النظرية والتقوى تمنحه الثبات العملي فيكون كالنهر الجاري الذي يروي الأرض ويثمرها باستمرار.

الكشف عن الحقائق والسمو بالروح

الثمرة السادسة هي الكشف عن الحقائق والسمو بالروح إذ يصبح الإنسان قادرًا على إدراك أسرار الحياة ومعرفة غايات الخلق والتمييز بين ما يرفع النفس وما يثقلها بين الحقائق الثابتة والمتغيرات العارضة بين المباح والممنوع فيتجلى له الكون على حقيقته والوجود على جوهره والروح على كنهها ويصير عارفًا بالله وبنفسه وعالماً بمقاصد الحياة ومؤثراً في واقعها.

الحكمة :فالعلم بلا تقوى معرفة أما العلم مع التقوى فهو حكمة.

الأمانة العلمية :المتّقي لا يسرق الأفكار ولا يزوّر النتائج لأنه يستشعر رقابة الله.

العدل في استعمال العلم :فلا يستخدمه لظلم ولا يسخّره للشرّ بل يجعله وسيلة لعمارة الأرض.

الفصل السابع: صور عملية من القرآن

القرآن يقدّم نماذج حيّة لارتباط العلم بالتقوى:

- سيدنا يوسف عليه السلام :قال تعالى على لسانه :﴿*إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ*﴾ كان يوسف صاحب علم بالتأويل والإدارة لكنه كان أيضًا صاحب تقوى فجمع الله له بين التوفيق في الدنيا والكرامة في الآخرة.
- سيدنا موسى والخضر :حيث جمع الخضر بين العلم اللدني والتقوى فعلم موسى أن وراء ظاهر الأحداث حكمة إلهية لا تُدرك إلا ببصيرة إيمانية.

الفصل الثامن: أزمة العصر بين العلم والتقوى

عصرنا الحديث بلغ ذروة العلم التجريبي لكنه في الوقت نفسه يعاني من فقر التقوى فالعلم أبدع التكنولوجيا والطب والهندسة لكن غياب التقوى جعل البشرية تعيش تحت تهديد السلاح النووي والانهيار البيئي والأزمات الأخلاقية.

ومن هنا فإنّ الإنسانية اليوم أحوج ما تكون إلى ردم الهوّة بين العلم والتقوى؛ لأن العلم بلا تقوى كالسيف في يد سكير بينما العلم مع التقوى كالمصباح في يد حكيم.

إنّ التقوى والعلم جناحان لا ينهض الإنسان بدونهما فلا العلم يغني عن التقوى ولا التقوى تكفي بلا علم فالتقوى تعطي للعلم روحه والعلم يعطي للتقوى

نضجها وباجتماعهما يتحقق معنى قوله تعالى :﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وعليه فإن بناء الأمة يحتاج إلى علماء أتقياء وأتقياء علماء؛ إذ لا يُصلح الدنيا إلا علم هادف منضبط بروح التقوى ولا يزكّي الروح إلا تقوى مستنيرة بعلم صحيح وهكذا تلتقي شجرة العقل بشجرة القلب فتثمر إنسانًا ربّانيًا عابدًا عالمًا يعمّر الأرض بالعدل ويبتغي بعمله وجه الله.

خاتمة الكتاب

قد أَفرغنا في هذا الكتاب جهدَ الطاقة وبذلنا في نَسجِه ما يَسَعُ المَقَام من الترصيع والإحكام مُجرِين فيه مَباحثَنا على سَنَنِ الأوائل الذين أودَعوا مصنَّفاتِهم شَرَفَ الحكمة وجَلاءَ الغاية سائلاً المولى أن يكون هذا الكتاب معيناً تُرتَقى بها مَراتبُ التعلُّم ومرآةً تُجَلِّي علاقةَ العِلم بمقاماتِ الزهد وأُفُقِ التُّقَى وكيف أنَّ العِلم إذا خَلَعَ رداءَ العمل كان كالسِّراجِ في ريحٍ عاصفٍ لا يُنتفع بضوئه وأنه إن تَرَفَّعَ بصاحبه إلى خُشونةِ الزهد ورَحابةِ التقوى أضحى تاجًا على مَفارقِ القلوب لا تَبليه الأعوامُ ولا تَدْرُسه الأيَّام.

وإنَّما أوضحنا في فصولِه أنّ العِلمَ ليس غايةً تُرتَجَى لذاتها بل هو آلةٌ تُوصِل إلى سُموِّ الغايات وسُلَّمٌ يُرتَقى به إلى معرفةِ الحقائق واستنارةِ البصائر وما خُلِقَ الإنسانُ إلا لِيَفقَهَ عن الله أمرَه ونهيَه ومن لم يكن عِلمُه ذريعةً إلى تقواه وزُهده فقد حادَ عن جادَّةِ الرُّشد وركب مَتنَ التيه وكان عِلمُه حُجَّةً عليه لا له.

وقد استودعنا هذا السِفرَ مُقرَّراتٍ تُفصِح عن أنَّ المراتبَ في العِلم متفاوتةٌ على قَدْرِ تفاوتِ أصحابها في النِّيَّات لا بمجردِ حِفظِ الألفاظ وتَردادِ المسائل وأنَّ أشرفَها ما قارَنَه خشوعُ القلب وصِدقُ التوجُّه وزُهدُ النَّفس في حُطام الدُّنيا الزائل فكم من

مُتعالِمٍ صَلِفٍ حَصَّل من دقائقِ الصَّنعة ما بهر الأبصار غير أنه أضحى عند الله من أجهلِ الجاهلين إذ لم يُثمِر عِلمُه خَشيةً ولا وَرَعًا ولم يَزده إلا عُجبًا وكِبرًا.

فهذا الكتاب وإن بدا حَبكُه عسيرَ المسلك على غيرِ المُتضلّع في صَنعةِ البيان قد رُمنا به أن يُجلّي لِمَن طالعَه أنَّ الزُّهدَ ليس خُمودَ طبعٍ بل سُموُّ هِمَّةٍ وأنَّ التقوى ليست تحرُّزًا من الشُّبهاتِ فحسب بل مقامُ شهودٍ للهِ في كلِّ خاطرٍ وحركة.

فإن نالَ هذا المُصنَّفُ مَرتبةَ القبول عند أهلِ العلم وحَظِيَ بالتَّداول بين أولي الأفهام الرَّاسخة فذلك مِنَّةُ الله وحده لا بحولٍ لنا ولا قوَّة وإن وَجَدَ فيه الناظرُ غموضًا أو التواءً في مَسالك العبارة فذلك قصدٌ متعمَّدٌ إذ لا يُؤتي هذا البابَ حقَّه إلا مَن سبَح في لُجَجِ العربيةِ واغترفَ من معينِها الصافي وأَشرَبَ قلبَه بَردَ التقوى وسَكينةَ الخشية.

وبعدُ إذِ استَنفَدنا في تضاعيف هذا السِّفر العبارات واستفرغنا لُبَّ الطاقات في نَسْجِ خُيوطِه على مِنوالٍ التوى بالتعمية والتعمُّق فقد آنَ أن نَطوي الرَّحل على خاتمةٍ هي في مَقام الإيجاز كالحُجَّة القاطعة وفي ميدان الإعجاز كالطلسمِ المستبهمِ على غيرِ أربابِ الفهومِ المترسِّخة.

فقد نَصبنا فيه أعلامَ الحقائق على رُبى منازعِ الظنون وعلَّقنا لُبابَ الزُّهد بأهدابِ العِلم تعليقَ الجُمان في نحورِ الغواني إذ العِلمُ إن لم يُغشَّ بوشاحِ الخشية ويُتوَّج بتاجِ التُّقى فليس إلا أضغاثَ أحرفٍ تقرَعُ أسماعُ الغافلين بلا فقهٍ ولا انتفاع ومَن رامَ مَراتبَه العليا بغير سُلَّم الورع والزهد فقد استهوَته زخارفُ الحِبرِ على رقٍّ وأظلَّه سرابُ النَّيل دون بلوغ النبعِ الصافي.

وهذا الكتاب إنما أردنا به أن يكون مَرقاةً للعقول الرازحة تحت صخور التقليد وسُلَّمًا للمُتضلّعين الذين ينفُذون من ظواهرِ الألفاظ إلى بواطنِ المعاني إذ صياغتُه

عمدًا جُعلت كالأغاليقِ المُحكمة لا يُفتحُ قُفلُها إلا بمفتاحِ مَلَكةٍ راسخةٍ في ضُروب البيان.

وقد حرصنا أن نُضمِّن تضاعيفَه أنّ التعلُّمَ مَراتبُ: أدناها مُجرَّد الحفظ وأوسطها تمييزُ المقاصد وأعلاها شهودُ المعلوم في نَفسِ العارفِ شهودَ استبصارٍ لا مجرَّدَ إدراكٍ مُبتذَل فمَن لم يَستَدرِجهُ عِلمُه إلى رُتبةِ الخشوع والانقطاع فهو من سَفَهاءِ العلماء وإن أَحاطَ بالمسائل كما يُحيطُ السِّوار بالمعصم.

واللّهَ نَستشهدُ أنّا ما رمنا به تزيينًا للسطور ولا تفخيمًا للأبنية اللفظية بل قصدنا به أن يكون قِنديلًا في ليلٍ مدلهمٍّ وسِراجًا مصونًا تحت زجاجةِ الحكمة يُوقَد بزيتِ التقوى لا بزَبدِ الرياء فمَن أصابَ منه مقصودَه فليحمد اللّهَ على فتوحاتِه ومَن أعياهُ غموضُه فليعلم أنَّ المعارفَ لا تُؤتى إلا على سُلَّمِ الصبر والرياضة وما وراءَ ذلك فهو هَباءٌ منثورٌ.

وهكذا نَطوي سِفرَنا هذا على خِتامِ مسكٍ وعِقدٍ منثورٍ بأنوار الحكمة مستشفعين إلى الله أن يَجعله خالصًا لوجهه نافعًا لأهل التعلُّم مُوقِظًا للغافلين مُذكِّرًا للعارفين وحَسبُنا من التوفيق أن يكون هذا الكتابُ شاهِدًا لنا يومَ تُبلى السَّرائر إذ نَلقى ربَّنا وقد شهد القلمُ بما خططنا واللِّسانُ بما نَطقنا والله المستعان والتوفيقُ بيدِ مَن له مقاليدُ الغيبِ والشهادة وعليه التُّكلانُ في الأولى والآخرة وهو حسبُنا ونِعمَ الوكيل.

المؤلف: خالد نصار

في يوم الأثنين الموافق 8 سبتمبر 2025